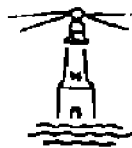


عبدالحليم عباس

أبونا

الطبعة الثالثة



دارالمعارف



بغداد

عن يونس بن عبد الأعلى قال : قال
لى الشافعى يا يونس هل دخلت بغداد
قلت لا . قال « إذن ما رأيت الدنيا »
(تاريخ بغداد الجزء الأول)

فى عام خمسة وأربعين ومائة بعد الهجرة ، انحدر من الهاشمية
قرب الكوفة فتى أسمر نحيف القامة مهيب الطلعة ، ثم أصد فى
السهل الممتد بين دجلة والفرات ، وجاس خلاله يتنسم الأرياح ،
ويسائل ساكنى البيع فى هذه الأمكنة عن موضع صالح يبنى
فيه مدينة .

لم تبخل عليه الريح ، ولم يضمن عليه ساكنو البيع ،
فدلوه على خير مكان فى هذا السهل العريض . فأمر أن تخط
على هذه الأرض خطوط من رماد ، ثم يوضع على هذا الرماد
حبُّ النفط ، ولما التحمت النار وصارت طرائق نظر إليها وقال :
هكذا يجب أن تكون مدينتى .

هذه المدينة هي بغداد ، وهذا الفتى هو رجل بنى العباس المنصور ،
 أما الخطوطُ من رماد ، فهي بعد حين القصور الرحبة ، مدارجها
 من مرمر ، وسرورها من عاج ، وستورها من ديباج .
 وفي هذه السنة أيضاً — على حدّ بعض الأقوال — ولد في
 قرية من قرى الأهواز ، لرجل مهاجر من دمشق وفتاة فارسية
 طفلٌ أسماه « الحسن » .

قامت مدينة المنصور ، وحيء من الشام وواسط بالأبواب
 التي توضع على الأسوار كما حيء بأبواب « مدينة الزندور التي
 بنتها الشياطين ^(١) » فنعم الخليفة وقرّت عينه ، بعد أن أخافته
 الهاشمية . فهو الآن بين أنهار لا يأتيه عدوه منها إلا على جسر أو
 قنطرة كما قال له البطارقة أصحابُ البيع . ولكن الأنهار تحمل
 غير الميرة ، تحمل السنديات والهنديات والجواري الروميات .
 والعدو قد لا يجيئ على جسر أو قنطرة ، فقد يكون في قلب المدينة .
 وقد يجيئ مع الجواري الآتيات فلا تستعصى عليه أبواب الشياطين
 ولا تهدم من تحته القنطرات والجسور .

نما الطفل الذي ولد بالأهواز وترعرع ولكنه لا يزال

(١) تاريخ بغداد الجزء الأول

حائراً بين البصرة والكوفة ومضارب الأعراب . تفيض أنهار
بغداد فإذا الأرض مخضرة ، وإذا الجنائن مونة ، والميرة لا تزال
ترد ومعها الجليبات من الجوارى ، فتزيد النفوس تهاكاً على
الترف وحباً للاستمتاع . ولقد استوفت بغداد كل غناها وبذخها .
ولبست حدائقها منتهى حسناتها وجمالها . ومشى المترفون إلى أقصى
غايات الترف واللهو . فجاءها — فى زمن الرشيد — الطفل الذى
ولد بالأهواز بعد أن تبدل اسماً باسم فهو أبو نواس . جاءها
ليأخذ مما تأخذ به طبقة المترفين التى يلتصق بها ، ويحرص على أن
تكون له بها صلة ، ولما لم يكن به تعفف ولا حشمة ، فقد انطلق
مع المنطلقين ، ولما مع اللاهين . وكان به سعار إلى اللذة ، فلم تبخل
عليه بغداد بلذة تشهيهها نفسه ، أو يصورها خياله . افتنت فى
تقديم هذه اللذائد فافتن فى التغنى بها حتى كاد يلحق أمره وأمر
هذه المدينة — اغرابته وطرافته وبالع ترفه ومجونه — بحديث
الأساطير ... أمضى عمره سادراً لا يرعوى ، ومغموراً فى حدائق
القفص وقطر بـل لا يفيق ، والناس من حوله لا ينكرون من
أمره كبير شئ ، ولكنهم يعدلونه أن صرح بحديث هذا اللهو
والجئون . وأبت عليه ملكته الفنية ، وإشاره للصدق ، وكرهه

الرياء ، إلا أن يجهر به ويصوره على حقيقته وواقعه .

ودع التستر والريا ء فما هما من شائيه

لم يكن هذا الفتى بدءاً في عصره ، ولكن عصره كان بدءاً في العصور . فلم ير العرب لهم من قبل مملكة كهذه تمتد غرباً فتضم في طريقها الشام ومصر ، ثم تلتهم شمال إفريقيا حتى المحيط ، ويظلل جناحها الممتد إلى الشرق ممالك ودولاً حتى الهند والصين ، ويدين لها في الشمال والجنوب أجناس مختلفة وعروق متباينة . . . وتتضافر هذه الدنيا على إسعاد مدينة بغداد فتُرسل إليها ذهبها وفضتها ، ومن ترفها ومجونها ألواناً جديدة لم يسمع بحديثها الناس ، والناس في هذه المدينة عجيبة من العجائب . فليسوا إلى أمة واحدة وإنما هم إلى أمم مختلفة المشارب ، متباينة العادات . فهم فرس وعرب وكرد وترك وسريان وهنود . وهم بيض وصفرو وسمر وسود . وهم مسلمون ونصارى ويهود ومجوس . وهم غير هؤلاء أجناس وطوائف وأديان لا تدخل تحت حصر . . . وكل هؤلاء تضمهم المدينة المسورة التي قال بُناتها : لا يأتيا العدو على جسر أو قنطرة « بين دجلة ودجيل تقع المدينة التي تجبي لها كنوز الأرض وتجمع إليها كل إنسان ،

وهي أسرع ذهاباً في الأرض من الحديدة المحماة^(١) .

هل استوفت المدينة كل حظها ؟ لا ، فلا يزال في نفوس أهلها الفرس والعرب بقية من ورع ، وفضلة من تعفف وخلق محتشم . فليجئها مع كل هذا آراء وأفكار ، وكتب مخطوطة تهون أمر الورع ، وتحل من قيد الخلق المحتشم . ثم توفي — الرشيد — وجاء الأمين « وكان الترف في القصور إغراقاً فأصبح شذوذاً وانحرافاً » ، فتفتحت أبواب القصر لطائفة أخرجتها الغواية عن كل عرف ، وحلتها من كل قيد . وكان من بينها رجلنا الخمور في حانات بغداد ومنازه دجلة والفرات ، فشدنا مع الشادين ولها مع الماجنين العابثين .

ولكن الخمر التي أدمن شربها صرفاً وممزوجة قد فعلت بصحته فعلها . وشهرته السيئة قد جعلت سيده رب القصر يتحاشاه ، بل يضيق عليه ، ويباعد ما بينه وبينه . وكأنا أحس أن مرابع لهوه ستأخذ من بهجتها الفتنة ، وتأتي على جمال بغداده الحرب المنطلقة فأغمض عينه في عام سبعة وتسعين ومائة ومات^(٢) .

(١) حديث ضعيف

(٢) ماورد بهذا الفصل من أساطير وحقائق فعن تاريخ بغداد للخطيب

جوار وخمور وأشياء بينهما

قد يثرى العصر، وتصح سياسته، وتنشط فيه الحركة العلمية والأدبية ويمد لها في الحرية، ولكنه ليس بالعصر العباسي إذا لم يدخل في حسابه حديث الجوارى ومجالس الشراب، وما يتصل بهما وما يمت إليهما من غناء وطرب، وما يتبع الغناء والطرب. فلقد كثرت الجوارى في هذا العصر، وكثرت الخمر وازداد شاربوها وشاع الغناء وافتنّ الناس فيه. وقارىء أدب هذا العصر لا يزال يقع على مجالس شراب، ويهفو سمعه لغناء مستطاب، وتطالعه في كل حين وجوه جوار سافرات أو منتقبات، والشراب والغناء من مستلزمات الترف والثراء. أما الجوارى فهن يتبعن هذين ولكن لا بد من أن يمهد لهن سبب آخر. فما هو ؟ ؟

جاءت الجوارى وعرفهن العرب مع الفتح. وساعدت حالة الثراء والاستقرار في عهد الرشيد على الإكثار منهن حتى بلغن في قصره « ألفين » كما روى صاحب الأغاني. وغالوا بهن حتى بذلوا فيهن عشرات الألوف من الدنانير فقد اشترى الرشيد واحدة

بمائة ألف دينار . وأوقر الأمين زورق عمه جعفر الهادي ذهباً ثمناً لجاريته « بذل » التي لم تطب نفسه عنها هبة أو بيعاً ، فأخذها الأمين مع هذا الثمن على حال تشبه الغصب . والجارية تقوم بما لا تقوم به « الحرة » . فقد يكفي هذه محبتها ونجارها ، أما تلك فلا بد من صفات وخلال تلوّبها . وهذه الصفات والخلال ترجح في الميزان على صفات « الحرة » وخلالها . فأول ما يطلب من الجارية الخلق في الغناء ، وإذا حذقت الغناء فقد اتصلت بالأدب ، وروت الأشعار . وقد يصل التثقيف بالجوارى إلى حد أن ينظم الشعر ، ويجارين بعد ذلك فحوله كما كانت تصنع عنان جارية الناطقي . فلها مساجلات مع شاعرنا النواصي ، ومروان ابن أبي حفصة . وقد ذكرت كتب الأدب أنه دخل عليها هذا مرة ومولاهما يضربها فارتجل قائلاً :

بكت عنان فخرى دمعها كالدر إذ ينسل من خيطه

فأجابته على البديهة :

فليت من يضربها ظالمأ تحف يمناه على سوطه

ويظهر أنه كان لعنان هذه ما يشبه الصالون يجتمع فيه رجال الفكر والشعر ، ورواد اللهو والاستمتاع ، وتجري في ندوتها

مطارحات في الأدب وفي الغزل مجمجمة حيناً ، سافرة أحياناً . وحديث هذه المجالس يذاع وينشر حتى يصل إلى قصر الرشيد فيرغب إلى مولاها في شرائها ولكنه يشتط في الثمن . ومثل عنان هذه في الثقافة ورواية الشعر «عريب» جارية المأمون ، و «دنانير» جارية يحيى بن خالد ، وعشرات مثلهن حذقاً في الغناء وبراعة في الشعر . وألوف دونهن في هذا وإن لم يكن دونهن في الظرف والحسن ولين الكلام .

حدث محمد بن يزيد عن أحمد بن صدقة قال : « دخلت على المأمون في يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة رومية مزنرات قد تزين بالديباج الرومي ، وعلّقن في أعناقهن صلبان الذهب ، وفي أيديهن الخوص والزيتون . فقال لي المأمون : ويلك يا أحمد قد قلت في هؤلاء أبياتاً فغنّني بها ثم أنشدني :

طبّاء كالـدنانير مـلاح في المقاصير
جـلاهن الشـعـانين علينـا في الزنـانير

فحفظتها وغنّيته فلم يزل يشرب والجواري يرقصن بين يديه أنواع الرقص من «الدستبند إلى الايلا» حتى سكر فأمر لي بألف دينار ، وأمر بأن ينثر على الجواري ثلاثة آلاف دينار . «

هذا مجلس ومثله عشرات المجالس .

وأصبحت التجارة بهؤلاء الجوارى شيئاً رابحاً . فعمل أصحاب هذه التجارة على جلبهن من سائر أطراف المملكة متعددة الأعجناس والألوان . وكان منهن الجوارى اللاتى نشأن فى البصرة والكوفة والحجاز ، وعرف الناس والشعراء خاصة لكل جنس جماله الذى يمتاز به . فهناك ما يقوله النواسى فى جارية رومية .

أبصرت فى بغداد رومية	تقصر عنها كل أمنيـه
فصرية الطرف وشامية الـ	خلوة فى نكهة زنجيه
صفدية الساقين تركية الـ	سـاعد فى قد طخاريه
هندية الحاجب نوبية الـ	نخدين فى زهو عباديه
حيرية الحسن كيانية الـ	أرداف فى لية عاجيه

ودخلت هؤلاء الجوارى الخدمة العامة . وفى أشعار النواسى ورفاقه ما يدل على أن تلك الحانات التى كانت تفتح لهم أبوابها فى أنصاف الليالى كان يقوم على الخدمة فيها جوار يحسن مع بيع الخمر بيع الصبابة والغزل .

فما عسى أن تصنع هذه المغريات فى أعصاب أبى نواس ، الذى لم تعنه النشأة الأولى على سلوك الطريق الوسط فى الحياة . لقد تغزل بالجوارى ، وذكر منهن فوق العشر ،

وشبب بدنانير، وأحب جنان، وتغزل - ولم يسم - بكثير غير هؤلاء. ويقال إن عنان غلبته في مجال الأدب المكشوف. ولم يستغرب الناس ولم يستكثروا من جارية أن تغلب شاعراً خليعاً في أدب عار مفضوح . .

أما الخمر فقد عرفها العرب وافتنوا فيها - في الجاهلية والإسلام - وذكر صاحب نهاية الأرب أن أنس بن مالك قال : « حرمت الخمر ولم يكن للعرب عيش أعجب منها وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر » ولما أنزل التحريم امتنع العرب عن شربها . وكان شاربها يتستر في أمره ، فإن ظهر حُذِّ ، وبقى الأمر كذلك حتى جاءت الدولة الأموية فشربها بعض خلفائها ، واشتهر بشربها الوليد ويزيد . ولكن أمرهم في شربها بقي يروح بين التستر والظهور ويحمل - دوماً - على محمل الغرابة والاستهجان ، حتى جاء الدور العباسي . فلها عنها المنصور بإقامة الدولة ثم شربها الهادي . أما المهدي فإنه وإن لم يشربها فقد عفا عن شربها . ذكر صاحب العقد « أن إبراهيم بن هرمة سأله أن يجعل جائزته كتابته إلى عامله على المدينة أن لا يحده على شراب . فاستهول تعطيل حد من حدود الإسلام ثم كتب لعامله « من جاءك

بابن هرمة فاجلده مائة واجلد ابن هرمة ثمانين » . . فكان
ابن هرمة يقول : أين من يشتري الثمانين بمائة .

شغف الناس في هذا العصر بالخمر ، ثم شغفوا معها بأكثر
من ذلك فقد أغرموا بالنقاش في تحريمها أو عدمه . والأدباء
والشعراء وإن لم يجيزوا لأنفسهم ما أجاز به ابن قتيبة بعد ذلك
من القول في كتابه الأشربة « من أن المحرم بالسنة فيه فسحة
كالقليل من الديباج والحرير ومن الخمر غير خمر العنب لم
تمسه نار » . أجازوا لأنفسهم شربها والجهر بالوله بها . . .
بعد أن تعطل أمر إقامة الحد فيها .

ومع الخمر والجوارى يجيء الغناء . فقد ملأ القصور والدور
وأحكمت الصنعة البارة ولون الشعر المعجز الذي يتغنون به .
فأخرج الوقور عن وقاره . وهل جاء بعد الغناء شيء ؟ ؟ لكم
كننا نتمنى أن نقول لا ، ولكن لا هنا غير مستطاعة . فقد
جاء الشذوذ الجنسي والميل المنحرف . شاع حب الغلمان . وقد
يكون هذا الشذوذ موجوداً بكل مكان وكل زمان ، ولكن
الجهر وعدم التستر منه وأن لا يرى فيه صاحبه غاراً ، فتلك حالة
لا نقول إنها مقصورة على هذا العصر ، ولكنها أشيع فيه منها

في غيره من الأعصر. أخرجهم الشذوذ أو أخرج الكثير منهم إلى
أن يقيسوا جمال الجارية إلى القدر الذي يشبه فيه جمالها جمال الغلام.
أفديك خذها من يدي وهات عذبي حب غلاميات

وتغزل بالعلمان غزلاً مكشوفاً جلّ شعراء هذه الفترة ومهما افتنوا
في الغزل بهم فشاعروهم في هذا الضرب من المنكر « أبو نواس ».

الناس

هم الذين يعينهم الفضل بن يحيى « زبدٌ جفاء ، وسيلٌ
غشاء ، همٌ أحدهم طعامه وشرابه » . فأين مكانهم في دنيا بغداد ؟
يمرُّ التاريخ العربي بالعصور التي يؤرخها ، فلا يصف إلا ملوكها
وقوادها ووزراءها ، وذوى الجاه فيها . وليس هؤلاء أهل العصر ،
بل هم جزء ضئيل منه . إن الذين لا يؤرخهم هم أهل الذين
يكذّون ألوان الكد ، ليدفعوا ما عليهم من مال ، ويوفوا بما
عليهم من خراج ، ليهيئوا لسادتهم العيش المونق ، والحياة الرغدة .
وسبيل الباحث عن هؤلاء الناس أن يقف عند اللامحة التي
تمرّ عرضاً في كتب التاريخ ، والطرفة التي ترد في معرض الفكاهة
والتندر في كتب الأدب ، ثم يضم هذه اللامحات ، والفكاهات ،

فيخرج بصورة لهم إن لم تلك صادقة الأجزاء ففيها الملامح التي تدل على هذا الخلق « الذي هو الناس » فكيف كانوا في هذا العصر الذهبي بين العصور ؟ !

كانوا جهالة في عهد النهضة العلمية ، وليست هذه الحال بالمستغربة في عهد لم تنشأ فيه المدارس العامة . فقد روى الطبري ، أن المأمون أراد أن يلعب معاوية ، فقال له يحيى بن أكثم : إن العامة لا تحتمل هذا ، فركن إلى رأيه ، وحدث به ثمانية أحد المعاصرين فقال له : والعامة في هذا الموضع الذي وصفها يحيى ، والله لو وجهت إنساناً على عاتقه سواد ، ومعه عصا لساق إليك بعصاه عشرة آلاف منها ، والله مارضى الله أن سواها بالأنعام (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً) ثم ذكر أنه مرّ بشارع الخلد ، فإذا إنسان يبيع أدوية وهو ينادي : هذا الدواء لبياض العين ، والعشا والغشاوة ، والظامة ، وضعف البصر ، والناس قد انثالوا عليه ، فقلت له : يا هذا إن عينك أحوج إليه فلم لا تستعمله ؟ ؟ فقال : أنا في هذا الموضع منذ عشر سنين ، ما مرّ بي أجهل منك ، ثم قال : أين يا جاهل اشتكت عيني ؟ ؟ قلت : لا أدري . قال : بمصر . فأقبلت على جماعة فقالت : صدق الرجل . أنت جاهل ، وهنت بي ،

فقلت : لا والله ما علمت أن عينه اشتكت بمصر ، فتهللت بهذه
الحجة . وليست هذه الحكاية بالمتخيرة من بين تلك الحكايات
التي تبين مقدار جهل الناس في هذا العصر . فقد ذكر في الجزء
الثاني من كتابه حكاية الذي كان يظن أن فاطمة رضوان الله
عليها هي زوجة النبي صلى الله عليه وسلم . وذكر الجاحظ
عشرات مثل هذه الطرف .

وكانوا فقراء ، يتعيشون بالنهب ، والسرقات . ونشرت الفتنة
في زمن الأمين ببغداد فإذا آلاف العيارين العراة .

واحد منهم يشد على ألفين عريان ماله من إزار
ويقول الفتي إذا طعن الطعنة خذها من الفتي العيار

ويقول فيهم عمرو الوراق :

عربان ليس بندي قميص يغدو على طلب القميص

وتكشفت ببغداد المترفة عن آلاف مؤلفة من السبالة الرعاع .

وآلاف مؤلفة من الشطار الذين لا يملكون من أسباب العيش
غير أدوات الجريمة .

ليس له مال سوى مطرد مطرده في كفه رأس مال

أين كانت هذه الآلاف ؟ كانت ببغداد ذات الخمر والقيان

والكواعب والعلمان ، إن هؤلاء الناس حيزتهم الحكومات

القوية وزواهم الجهل والفقر عن أعين المؤرخين في غير أوقات الحروب التي يساقون فيها للذبح ويقدمون قرابين رخيصة أو غالية على مذبح المرنج .

يقولون إن الأديب يمثل عصره . فهل مثل شاعرنا النواسى هؤلاء وهو من أكابر أدباء هذا العصر؟ لم يمثلهم هو ولا مثلهم غيره . لم يعرف النواسى من الناس في عصره إلا من هم « على رأس الهرم » كما يقولون . أما الناس الآخرون فلم يعرفهم فلندعهم فحديثهم يطول ، ولنسر مع شاعرنا المفتون ببغداد غير بغداد الناس من مجلس قينة إلى ظل جارية إلى حديث شراب .

نسب الشاعر ونشأته الأولى

ولد في عام خمسة وأربعين ومائة ، وإن شئت ، نزلت بهذا العام إلى ستة وثلاثين أو صعدت به قليلاً إلى تسعة وأربعين بعد المائة ، ولك في هذا حجتك من أقوال المعاصرين وغير المعاصرين ممن كتب عنه . ولا تستطيع أن ترجح رواية على رواية لأن أكثر من روى عاماً روى غيره ولم يرجح . وكما تختلف السنة التي ولد فيها ، تختلف البلدة . وقصارى ما يستطيع الباحث أن

يقول إنها في الأهواز . وهو يأخذ بهذا القول لا على سبيل التحقيق ، ولكن برأى الكثرة التي كتبت عنه ، وإن كان هنالك من يقول إنه ولد في البصرة . وسيان ولد بهذه أم بتلك ، فلم يعرف له موطنًا إلا هذه الأخيرة . والذين يقولون إنه ولد في غيرها يذكرون أنه جاء إليها مع أهله طفلاً في الثانية أو السادسة من عمره . ففي البصرة أمضى سنى الطفولة والشباب ، وأقام بها حتى الثلاثين من عمره . يقول ابن قتيبة : « وكان بصرياً » ويقول هو :

وإن أك بصرياً فإن مهاجرى دمشق ولكن الحديث شجون
وأُمّه جُلْبَان « امرأة فارسية » لا اختلاف في اسمها ومُجْمَعَتِها .
وإن اختلفوا في صنعَتِها . فهي تصنع الخيزران ، وهي تحوك الثياب .
ومن هنا نعلم أنها صنّاع اليد . وأبوه هانىء أو هنىء من دمشق
من جند مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . جاء الأهواز للرباط
ورأى جُلْبَان على ضفة نهر من الأنهار ، فأعجبته ملاحظتها فتزوجها .
ولا سبيل إلى معرفة أى عمل آثر هذا الدمشقى بعد انحلال جند
مروان ، وانتقال الملك إلى بنى العباس . ولكن صناعة الحياكة
ورعى الغنم تتردد في مُجْمَلٍ مبهمٍ ، وعلى السنة شائئ فضل ولده .

وحفظ هذا الجندى من جملة ما حفظ من أخبار أهله في الشام
أنهم من أصل يمنى ، ومن قبيلة الحكم بن سعد العشيرة ، إحدى
أنفخاذ قبيلة مذحج ، ولعله ذكر أيضاً أن جدّه من رجال الأمير
الجراح ، فقال الناس إنه مولى لهذا الرجل الكبير الذى يصفه
التاريخ بالصلافة والشدة وحسن الاستقامة فى ولايته . ولم يعينوا
نوع هذا الولاء ، والأرجح فيه أنه من الولاء الذى يتقرب فيه العرب
بعضهم من بعض بالجوار أو الخلف أو الإحسان . وقد دعا النواصى
نفسه مولى للفضل بن الربيع حينما أحسن اليه وأطلقه من السجن .
أصبحت غير مدافع مولا كما والحظّلى فى أن أكون كذا كما

ولا شىء يمنع من تصور هذا . فالجراح كان فى الشام قبل أن
يغادرها والياً على أرمينية ، ومقاتلاً فى بلاد الترك ، حيث استشهد .
فليس من المستبعد أن يكون أهل هذا الجندى تقربوا اليه
باليمنية ، ولازموه ليتقوا به ، وليكونوا منه بموضع بره وإحسانه .
ولم يك هانىء بحاجة إلى أن يكثر من حديث هذه اليمنية
والفخر بها . وليس مضطرباً فى الحياة مما يحتاج إلى ذلك . ولكن
الابن اضطرّ إلى جعلها من المتهمة فهو الحسن بن هانىء الحكيم
وله يقول والبة :

يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليلي ولم أنم
وضاقت الأهواز بهذا الدمشقي فجاء البصرة العامرة ، يحمل
هذه الأسرة التي هي جُلبيان وابناء الحسن وأبو معاذ ،
واستوطنوها دار إقامة . ولما كبر طفله الحسن وأصبح بحاجة إلى
التعليم ، لم يرض عليه به وأخذه إلى من يقرئه القرآن ، فحذقه
ومهر فيه حتى أصبح موضع إعجاب مقرئيه . غير أن الدهر لم يدعه
ينعم بطفولته . فقد توفى في غصونها أبوه ، وكانت الأسرة من
رقة الحال بحيث احتاجت إلى معونة ولدها بعد أن تعدى دور
الطفولة فوضعتَه أجيراً عند عطار في أسواق البصرة .

هذا هو النواسي في أسرته . لا تستطيع أن ترتفع بها ،
ولكنك تستطيع أن تنزل بها دركات ، وهي — كما ترى —
أسرة فقيرة ربة الأسرة فيها فارسية وربها عربي أصله من
دمشق وقبيلته يمنية . وأبو نواس يعرف أن مثل هذه الأسرة
لا يستطيع أحد التحدث عنها بلبّ الفخر والمباهاة بها . فقد ذكروا
أنه أمضى عمره يتستر على نسبه . فإذا لزّه « أبان » في الهجاء
من ناحية أمه وأبيه وقال له :

هانيء الجون أبوه	زاده الله هوانا
سائل العباس واسمعه	فيه من أمك شانا

وإذا أوجعه الرقاشى من ناحية نسبه بمثل قوله :

نبتى^١ فاذا قيل له أنت مولى حكم قال أجل^٢
هجاها بمثل ما هجواه به ، وأوجعهما كما أوجعاه ، ولكنه لم يجد
فى باب الفخر أكثر من قوله :

إن تهجنى تهج^٣ فتي^٤ ماجداً لا يرفع الطرف إلى مثلكا
وتمرُّ بديوانه فلا تجد فيه ذكراً لأمه وأبيه ، والفخر بهما
أو بأبيه كما يصنع غيره من الشعراء . وهو إما أن يكون أثر
الصدق فسكت ، أو خشى الفضيحة فلم يجر لسانه بشيء من ذلك .
وأبو نواس بطبعه يكره الفخر والتعظيم بالجدود . وقد يكون من
جملة البواعث على هذا الكره عدم قدرته على الفخر ، لأننا
نجد أنه يفخر باليمينية ويعتز بها :

وقال أمن تميم قلت كلا ولاكنى من الحمى اليماني
بلى فازدهتنى للصبا أريجية يمانية إن السماح يمانـ
بل نحن أرباب ناعط ولنا صنعاء والمسك من محاربها
ونحن إذ فارس تدافع بهم^٥ — رام قسطنطين على مرابها
فانخر بفحطان غير مكشعب خاتم الجود من مناقبها
ويفخر بنفسه قليلاً :

وما حامت عن الأحساب إلا لترفع ذكرها بأبى نواس

ولو لم أرت فخراً لكانت صيانتى فى عن سؤال الناس حـى من الفخر
فلا يطمس فى ذاك منى سوقة ولا صاحب التاج المحجب فى القصر
والفخر بالقبيلة هو فخر عام . والقحطانية ليست بأسرة وإنما
هى عصبية . والذي يفخر بها و بنفسه يلذله — ولو فى وقت
الحاجة — أن يفخر بأسرته . على أن هنالك من يدفعونه عن
اليمينية ويوردون تأييداً لدعواهم هجاءه إياها . ولا شك أن الذين
يدفعونه عن هذا النسب هم المضرىون الذين أوجعهم هجاء ،
وإلا فهجاءه لليمن وحده لا يكفى إذا فهم على حقيقته ، ونظر
فيه إلى طبيعة النواسى الساخرة ، فهو قد مدح هاشم بن حديج
اليمنى ، وجاءه راغباً فخيب ظنه وزاد بأن فخر بقبيلته كندة :
رأيتك عند حضور الحوان شديداً على العبد والعبد
وتحمد حتى يخاف الجليس شذاك عليه من الحده
وتختم ذاك بفخر عليه بكندة فاسلح على كنده
وكندة ليست كل قبائل اليمن ، وإنما هى واحدة من كثيرات .
فلو هجاها رجل من مذحج ومن قبيلة الحكم بن سعد العشيرة أياً
من يمينيته ؟ ثم عير ابن حديج بقتل محمد بن أبى بكر فذكر قبيلة
مضرية هى قریش

وما كان إيمانكم بالرسول سوى قتلكم صهره بعده
فلو شهدته قریش البطاح لما محشت ناركم جلده

وليس في هذا ما يجعله متذبذباً في نسبه .
ويظهر أن هاشم بن حديج أخرجه الهجاء عن طوره فأخذ
يشتم قبيلة النواسى واحدة بواحدة :

أشتم خير ذى حكم بن سعد لقد لاقيت داعية تؤادا
ويبقى النواسى إلى رضاه فيعتذر إلى ابن حديج الاعتذار
المخلص الذى فيه أكبر الدلالة على أنه كان يمينياً حقاً ، وأنه
إن أخرجه الغيظ فشتم كندة ، لا يلبث أن يرعوى ويعود إلى
رشده ، فيعلم أن كندة ومذحج وإن بعدت ، كلتاها من اليمن .
فما كان ليحسن مثل هذا الاعتذار لو لم يكن يمينياً :

أهاشم خذ منى رضاك وإن أبى رضاك على نفسى فقير ملوم
فأقسم ما جاوزت بالشتم والذى وعرضى وما مزقت غير أديعى
وهى المرة الواحدة التى يذكر فيها والده . ولعله لو أسعفته
القافية لترحم عليه فى البيت رقة تستدعى ذلك . ثم يقول
فى هاشم وأهل اليمن :

إذا امتازت الأحساب يوماً بأهلها أناخ إلى عادية وصميم
إلى كل معصوب به التاج مقول إليه أتأوى عامر وتميم
على أن المهم فى حديث الأسرة والأرومة أثرها فى تكوين
الشاعر . ولا ريب فى أن شاعرنا قد ورث عن أبويه صفات

وخصائص خلقية . ولكن من الإسراف — في غير طائل —
البحث في شعره ومذهبه في الحياة ، ورد شيء أو أشياء فيهما إلى
خصائص العرق الفارسي أو العربي . ذلك لأن النواسى قد طغى
عليه مؤثر البيئة . فهو شاعر أسرف في المجون في بيئة أسرفت
فيه ، وتهتك جلّ شعرائها . ومن الصعب القول كما قال القدامى :
إن أبا نواس هان عليه العرب وتغنى بعيش الترف وعيش الفرس ،
لمكان خؤولته منهم . فلهذا أسباب ليست من هذه ، سيراهما
القارىء مبسوطه في بحث العصبية .

وإذا كان النواسى فقد والده صغيراً ، فاعله لم ينعم بصحبة أمه
طويلاً . فهم يذكرون أنها تزوجت رجلاً اسمه « العباس » ،
ومن العبث البحث عن هذا العباس من هو ، ومتى تزوج
بجلبان . فلقد هان على التاريخ ، فلم يذكره إلا حينما ذكر أنه
تزوج بأم الشاعر . ولولا هذا الزواج لما ذكر . ويذكر ابن منظور
أن له أختاً تزوجت بشخص اسمه « خرج القصار » . ويسمون له
إخوة . والراجح أنه لم يكن له غير « أبى معاذ الذى كان عطلاً
من كل شيء » ، إلا أنه أخو النواسى . وليس يضير أبا معاذ أن
يسقطه النواسى من الحساب إذ يوجه الخطاب إلى جنان :

لا تفجى أُمى بواحدِها إن تخلفى مثلى على أُمى
فهو موجود على الرغم من هذا .

وحديث الأخت والأخ قريب من أن يكون صدقاً . فالنواسى
في بغداد يذكر أن له ذوى رحم وأنه مكاف إيتارهم وبرهم ، وأنه
مضطر إلى هذا الإيتار والبر ولو كلفه أن ينتعل قدميه بدل ركوب
الدابة الفارهة وأن يزهد في الثوب الثمين والملبس النفيس :

تقول لى الركبان مالك راجلا وكنت ركوباً عصر نحن رجال
فقلت عدائى عن ركوب وملبس ذوو رحم آثرتهم وعبال
فمن هم هؤلاء ذوو الرحم أسرة أبى معاذ ؟ ربما ، وربما كان
معها أسرة شقيقته . وفي شعره يذكر الأعمام والأخوال :

لو أن هذا كان فى بلدى أوضيت أعمامى وأخوالى
وذوو الرحم على أية صورة كانت قرابتهم للشاعر ، منهم جزء
من البيت والجزء الآخر هم العيال ، فمن أين جاء بهم الشاعر ؟
أحب أن أزعم هنا أن النواسى تزوج — على شكل ما —
ورزق أطفالاً

وأنه كان يسكن إلى أسرة فى بغداد — الأسرة التى كونها
هو — وهو زعم لاسبيل إلى تحقيقه من ناحية التاريخ . فالذين
كتبوا عنه ينفون ويثبتون ، ويمرون بهذا الجانب من ناحيته

سراعاً موقنين أن هذه الحياة العابثة المسرقة في المجون والخلاعة ،
لا تحتمل عيش الأسرة . وأوفى ما كتبه عن هذه الناحية
ابن منظور قوله إن أبا نواس تزوج وطلق في ليلته . ثم يضعف
الرواية إذ يذكر أن هناك من يزعم أنه لم يتزوج مطلقاً ، وما السبيل
إلى تأييد هذا الزعم إلا النظر في أشعاره . فهو يذكر في ديوانه
أن له ابنتين إحداهما اسمها « برّة » والثانية « لباب » ويقول
عن برّة « إنها الابنة التي لم ير أبوها غيرها » :

ألا إن بنتي بنت من لم ير ابنة	ولا ابناً سواها قد تبر وتؤنس
فيا « بر » بريني الحياة وإن أمت	فلا تدخربني دمعته حين أرمس
فذاك ابن سوء لا يرى لعشيرة	صلاًحاً ولا يعطى اللواء في رأس
تحب أباهها حب من لا أب له	وتذكره في الصدر وحشى فتأنس

ويذكر « لباب » وهو في مصر :

لباب تكبرى فوق الجوارى	فإن أباك أعتبه الزمان
متى أجمع أبا نصر ومصر	فما الدهر بينكما مكان

ولا سبيل إلى الزعم بأن هذه الأبيات قد تكون مدخولة على
أشعاره . فالذى أدخل على شعره ليس من هذا وإنما هو من
أشعار الخمر والمجون . ولعل « لباب » هي التي يذكرها في قصيدته
التي يمدح بها الخصيب في مصر :

أبشرى يا ابنتي بميرة مصر	وتمنى وأسرفى في الأمانى
--------------------------	-------------------------

وما أظن مجلس الخصيب يحتمل أو يفرض على النواصي أن
يكذب ويختلق ، ويدعى أن له ابنة .

وقد كان يكنى بأبي علي وكان يناديه بذلك الخليفة الشاعر
والخصيب ، ولقد حل هذه الكنية حتى موته .

فهل كان له ولد ذكر ؟ لقد رثي في بيتين ولداً له :

لعمرك ما أبقى لنا الموت بائياً تقر به عيناً غداة نؤوب
كأنى وترت الموت بابن أفاذه على حين حانت كبرة ومشيب
ويقول في قصيدة ثانية :

تقول التي عن بيتها خف محلى عزيز علينا أن نراك تسير
ذربي أكثر حاسديك بزورة إلى بلد فيه الخصيب أمير
فمن هذه التي خف عن بيتها مركبه ، وهو يرق لها فيطالب
إليها أن تدعه وشأنه ، ليكثر حاسديها ؟ لعلها «اباب» أو «برة»
ابنتاه ، ولعلها جارية من هؤلاء الجوارى اللاتي كثيراً ما كن
يهدين إليه .

ويقول وهو منصرف من السجن ، بعد أن شفع له الفضل
ابن الربيع لدى الأمين :

إني أنيتكم من الفبر والناس مجتمعون للحشر
لولا أبر العباس ما نظرت عيني إلى ولد ولاوفر

ويكرر لفظة الولد كرة أخرى :

لو أن دون الموت وافية لفديتها بالمال والولد
وإذا كان من الممكن أن تنصرف كلمة الولد في البيت الأخير
إلى غير مدلولها الحقيقي مما يحتمله الشعر ، فلا أظن أنه من الممكن
أن تنصرف إلى غير معناها في البيت الأول ، ويبقى بعد ذلك
المعنى سائما . فالسجين الذي يقول لمنقذه لولاك لم أستطع أن
أنظر إلى ولدي لا يستطيع أن يقول ذلك إذا لم يكن له ولد .
وإذا أردنا أن نؤرخ عيال النواصي قلنا إنه ذكر إحدى
ابنتيه في مصر وذلك بعد عام ١٨٧ للهجرة . ثم ذكرها بعد
خروجه من السجن . فإذا كان بعد خروجه من سجن الرشيد ،
ففي عام ١٩٣ . وإن يكن من سجن الأمين ، ففي عام ١٩٥ هـ .
ثم رثى ابنأله ، ويحتمل أن تكون ابنة ، فاللفظ هنا لا يقصد به
التحقيق ، وإنما هو لبيان مقدار الإعزاز والتفجع ، بعد أن
حانت منه كبرة ومشيب . ولعل ذلك بعد السنين التي ذكرناها .
وحكى « الصولى »^(١) عن محمد بن نافع — في معرض حكاية
عن الشاعر بعد موته ، أن الله غفر له بأبياتٍ قالها ، فأتى أهله

(١) وفيات الأعيان — ترجمة الشاعر

وسألهم عن غرفة الشاعر فلما رأوه أجهشوا بالبكاء ، ودلّوه على الغرفة ؛ ويهمننا من الحكاية كلمة الأهل ؛ والنواسى يردد كلمة أسرتى « وتفديك أسرتى » ، وهى أبيات لا نستطيع أن نوردها سنداً لما نذهب إليه ، إذ كانت مما يجوز أن يقوله الشاعر ثم لا يقصد مدلوله . ولكن هذه الكلمة إذا جاءت بعد الذى أوردناه كانت خليقة أن تحمل على معناها الحقيقى ، وهذا ما نرجحه فهل سكن الشاعر إلى زوجة ؟ ؟ أكثر الظن أن النواسى لم يتزوج كما تزوج الناس ، وإنما كان يسكن إلى هؤلاء الجوارى اللاتى يهدين إليه ، أو يشتريهن إذا قدر ، وهو زعم « مقبول » بالنسبة الى ذلك العصر ، عصر الجوارى والإماء .

وتزيّد الناس عليه فى هذا الباب ، ونخلوه أشعاراً لا يستقيم أمرها إلا إذا لم يتزوج . فلم يزوجه ، وضنوا عليه ببنت أو ولد . ولا سبيل لباحث إلا أن يحسب حساب هذه الزيادة على هذا الشاعر فى باب المجون ، وكل ما يتصل به .

علمٌ ولهوٌ

من حسن حظ النواصي وحظ العربية أن كانت البصرة في ذلك الحين مركزاً من مراكز الثقافة والعلم ، لا ينافسها في موضعها منهما إلا حاضرة الملك « بغداد » . ففي البصرة من يحدث فيجيد الحديث ، ومن يروى عن العرب فيكون الحجة في الرواية وصحة الاطلاع كالأصمعي وأبي عبيدة الذي استطاع أن يقول — كما يروى صاحب الفهرست — ما التقت فرسان في جاهلية أو إسلام إلا عرفت الفارسين والفرسين . وفيها النحاة المجيدون ، والقراء الأعلام ، ومن انقطع إلى غريب اللغة كأبي زيد الأنصاري . وفيها شباب في سن فتانا النواصي ، يغدون على هؤلاء المبرزين يأخذون عنهم ويتعلمون منهم ؛ وقد بدأ بعض هؤلاء الشباب يشدون في الأدب ويقرضون شعراً ، ولا نعرف بأى إغراء — غير إغراء العبقرية والإلهام — هفت نفس النواصي إلى أن يغدو مع هؤلاء الشباب ليأخذ مما يأخذون . فقد سمع الحديث عن جملة من رجاله كحماد بن زيد ، ويحيى بن سعد القطان وغيرها . ونظر في نحو سيديويه ، وتعلمذ على أبي عبيدة ، وخلف

الأحمر . واختلف إلى أبي زيد النحوى قبل أن يرتحل هذا
الحجة إلى بغداد في أيام المهدي ، وكان أشد هؤلاء الجهابذة تأثيراً
في نفسه أبو عبيدة وخلف الأحمر . فقد تعدى الأمر بينهما وبينه
إلى شيء يشبه الصداقة . فهو يكبرهما وهما يكبراناه . يقول عن
خلف : إنه جماع العلم ، وعن أبي عبيدة معمر بن المثنى إنه أديم
طوى على علم ؛ ويقول عنه أبو عبيدة : ذهبت اليمن بجذ الشعر
وهزله ، امرؤ القيس بجده ، والنواسى بهزله . وذكروا أن خلفاً
الأحمر لم يأذن له بنظم الشعر حتى أحفظه جملة صالحة من أشعار
العرب ، ثم طالبه بنسيانها . وهى طريقة بارعة فى الدرس اهتدى
إليها هذا الشيخ المنقطع له . فقد أراد أن يتمثل تلميذه الشعر
الذى حفظه ليرد إليه معناه من وراء العقل الواعى ، بعد أن يعمل
فى هذا المعنى عمله الخاص . فإذا جاءت هذه المعانى أو شبهاتها
فى أشعار النواسى فهمى له بعد أن جرت فى لحمه ودمه . وقد عرف
لأستاذيه فضلها فرثاهما كليهما .

ولم يكتف النواسى بما وعى من علم يتصل بما هو مقبل عليه
من قول الشعر وتعاطيه ، بل راح يطلب كل علم ، ويتذوق كل
معرفة . يروى ابن خلكان فى تاريخه أن اسماعيل بن نوبخت قال :

« ما رأيت قط أوسع علماً من أبي نواس ، ولا أحفظ منه مع قلة كتبه . ولقد فتشنا منزله فما وجدنا إلا قطراً فيه جراز مشتمل على غريب ونحو لا غير » .

ويقول ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء : « وكان النواسى متفنناً في العلم قد ضرب في كل نوع منه بنصيب ، ونظر بعد ذلك في علم النجوم » . وأورد هذه الأبيات وهي لأبي نواس في هجاء مغنٍ اسمه زهير :

قل لزهير إذا حدا وشدا أقل وأكث فأت مذار
سخت من شدة البرودة ——— صرت عندى كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفى كذلك الثلج بارد حار

ثم عقب عليها بقوله : « إن هذا الشعر يدل على نظر في علم الطبائع » . ومعاصرو النواسى ومن تلاهم لا يمترون في أنه قد أخذ من علوم عصره بحظ ، ويدل شعره على أنه كان له مثل هذه المشاركة ولا سيما في علم النجوم .

غير أن البصرة لم تكن كلها خالصة لحديث العلم والمعرفة ، فقد كان فيها أماكن للهو ، ومواطن المجون ، وفيها جوار مولدات وجليبات ، وفيها غير الجوارى ، الخمر وما هو شر من

الخمر وقد خلت حياة هذا الفتى من كل ما من شأنه أن يحدّ من نزوات الصبا الطائشة . فلا أب يحجزه بأوامره ونواهيه . وأكبر الظن أن أمه أصبحت « للعباس » . وإذا خلت حياة الفتى — في المدينة — من رقابة الأسرة فليست الغرابة أن تصير لهواً ، وإنما الغرابة أن تصير إلى لهو معه . كلف بالنحو وغريب اللغة ، ورواية الشعر ، ونظر في علم النجوم . وتساعد المدينة حالة العصر فهو عصر الترف والمجون فيخرج الفتى في لهوه عن حدود الاعتدال .

وقد يخلو عيش الفتى من رقابة الأسرة ولا يعدم مغريات المدينة والعصر . ولكنه لا يصير إلى عيش النواسى ولهوه ، فلا بد من علة تجيء مع هذه أو قبلها — تلك علة الأعصاب ، وحال المزاج . فأعصاب النواسى ومزاجه لا يساعده إلا على الإغراق في الشئ والإفراط فيه ، هي أعصاب شاعر مستوفزة مستعدة لإجابة أول داع .

مع والبة

ليس في سيرة النواسي ما هو أوضح وأغمض في الوقت نفسه من حكايته مع والبة . فإن شئت أخذتها على عجل وعلى علاتها كما رواها أبو الفرج الأصفهاني ، وهو أقدم رواة لها ، وكما أخذها الذين تلوه بتحريف قليل لا يمس جوهرها . رآه فاستملحه ويسار به إلى الكوفة . ومن ثم نشأت بينهما علاقة مريبة .

ويضطرب مكان تلاقى النواسي بوالبة بين الأهواز والبصرة والكوفة . ويضطرب زمان هذه اللقيا ، بين سن الصبا ، وبين سن هي فوق الصبا . كان في السن الأولى أجيراً في الأهواز ، أو في أسواق البصرة ، ولكنه لم يلتق بوالبة إلا حينما استقدم أبو بجير الأسدي هذا الصبي مع من استقدمهم إلى الأهواز ، ليصنعوا له عطراً . وفي السن التي هي فوق سن الصبا لم يتلاق بوالبة مصادفة واتفاقاً ، وإنما هو يسعى إليه في الكوفة ليصاحبه وليخرج إلى بادية بني أسد ليقوم أدبه ، وليطلع على لهجات العرب .

على أن مسألة الذهاب إلى بادية بني أسد تكاد تعين تاريخ

هذه اللقيا . فهو بعد أن أقام بها سنة - كما ترجح الرواية - ارتحل ووالبة إلى بغداد . ولا يضعف الرواية هنا أن ورد بها بعض المرات أن النواصي جاء البصرة منصرفه من الكوفة . إذ كان لا بُدَّ له من أن يعرج عليها لأنه نوى أن يرحل منها إلى غير رجعة . وإذا صحَّ هذا ، وليس في عرض الرواية على أشكال مختلفة ما يمنع من قبوله ، فيكون النواصي حينما التقى بوالبة أو ارتحل لصحبته قد شارب العقد الثالث من عمره ؛ لأنه قدم دار السلام وهو ابن ثلاثين ، أو كان قريباً من هذه السن ، كما يفهم من سياق حكاية حياته ، وكما يرجح من كتب عنه . وإذا ما ثبت ذلك فقد انتفت العلاقة المريبة بينهما فما سن الثلاثين بالسن التي تساعد عليها .

إن ذهاب النواصي إلى بادية بنى أسد أمرٌ يكاد يكون غير مشكوك فيه . وقد اعتاد شباب العرب الذين يرغبون في التمكن من الغريب والقول الفصيح ، أن يلموا بهذه البادية ، في سن مبكرة . ولكن النواصي لم يرسله أبوه إليها ولم يكن في وفرة من الغنى ليذهب إليها متى أراد . فالأقرب إلى المنطق أنه لم يذهب إليها إلا بعد أن عزم على الخروج إلى بغداد ، ولقاء رجال البين

فيها . فأراد التحوُّطَ للأمر ، والتمكَّن من اللغة لينفى عن نفسه كل شكٍ في قدرتها على الوقوف على صعيد واحد مع أعلام الشعر في مدينة الرشيد .

وذهاب فتى فقير من البصرة ، لا أهل له يستطيع الاعتماد عليهم في تهيئة أمر سفره ، يحتاج إلى من يأخذ بيده ، ويعينه على هذه الرحلة التي قد تمتدُّ إلى سنة . فليس ما يمنع أن يكون قد ذُكر له أبو أسامة والبة وهو شاعرٌ وظريفٌ ومن رجال بني أسد . فسار إليه يسأله العون ، وكان عند حسن ظنه فيه . فبعث به إلى البادية مع وفدٍ من بني أسد . ولما عاد سار وإياه إلى بغداد ، فلم يقو والبة على الصمود لرجال الشعر فيها ، ولم يكن صاحبه من الوفاء أو من الشهرة والقوة في الشعر بحيث يستطيع نصرته ، فلم يصنع شيئاً وعاد والبة إلى الكوفة ولم يعد .

هذا احتمال من جملة احتمالات تقال في علاقته بوالبة . وهو وإن لم يك بأقواها فليس بأضعفها ، يضاف إليه أن والبة كان شاعراً معروفاً في الكوفة ، لا مثيل له في البصرة . لأن الذين نبعثوا في هذه المدينة بعد كانوا لدات النواسى في السن . والنواسى

لا يثق بخلف الأحمر وأبي عُبَيْدة في نقد الكلام وتمييزه تمييزاً صادقاً فنياً كما يقول .

يزيد هذا الاحتمال قوة أننا نجد النواسى ينظم الشعر في الكوفة ، ونحن نعلم أن النواسى لم يستعجل النظم . فقد روى أنه قال : « إني لم أنظم إلا بعد أن رويت لستين امرأة » . وإن لم يكن هذا القول صادقاً بتمامه ، فالذي نستخلصه منه صادق بتمامه ، وهو أن النواسى لم يستعجل النظم وأنه لم يدع شعره إلا بعد أن شبَّ عن الطوق وتمكن من اللغة وأكثر من رواية الأشعار . وقد ذكروا أنه جارى والبة في الارتجال عندما قصدا الحيرة . وهذه قصيدة بعث بها من الكوفة إلى رجل اسمه « العباس » في البصرة :

قولا لعماس لكي يدري	اعلام عك قسوة المصير
هذا وتذكرني لسكل أخ	يفشاك ذكر المادح المماري
لتزينني والشين ذكرك لي	فاذكر هنانك واله عن ذكرى
واقطع بسيف صارم ذكر	أسباب كتب بيننا تجري
ماذاك إلا أنى رجل	لا أستخف صداقة البصرى
ذهبت بنا كوفان مذهبها	وعدمت عن ظرفائها صبرى

وهذه القصيدة تدلُّ على تمكن من القريض ، وتصرف به

وهي بعد — أي القصيدة — تدل على شيء آخر وهو تأمله من
البصريين لأنهم يذبحون في أثلته ، ويذكرون هباته « فاذا ذكر
هباتك والله عن ذكرى » وهو خطاب واحد ولكنه عمم البصريين
بقوله إنه لا يستخف صداقتهم .

ويعود النواسي مرة أخرى إلى ذكر البصريين في قصيدة
أخرى قالها وهو في بغداد . وهي قصيدة تنضح بالألم من
أصدقائه في البصرة :

أيا من كنت في البصر	ة أصفى لهم الودا
ومن كانوا موالى	ومن كنت لهم عبدا
ومن قد كنت أرعاه	وإن مل وإن صدا
شربنا ماء بغداد	فأنسانا كم جدا
فلا ترعوا لنا عهدا	فما نرعى لكم عهدا
ولا تشكوا لنا فقدا	فما نشكو لكم فقدا
كلانا واجد في النسا	س ممن مله ندا
قطعنا حبكم عمدا	كما أعرضتمو عمدا

وقد تكون هنالك أسباب ومسببات قوية حملت الشاعر على
قطع عهد رفاق الصبا عامداً . ولكن ألا يقارب الصواب من
يفترض أن من هذه الأسباب والمسببات تقول أهل البصرة ،
ورفاق البصرة ، وقد حهم في عرضه ؟ لقد شارى النواسي في بغداد

طائفة من الشعراء والناس . ولا مشاحة أنهم كانوا يتلقفون حديث أصله ونسبه وأنباء طفولته وشبابه من أهل البصرة المقيمين بها أو ببغداد . وكان من هذه الأحاديث والأنباء اجتماع الشاعر بوالبة . ويكفي أن يروى حديث هذا الاجتماع حتى يصدق كل ما يقال فيه ، فالنواسى متهتك في حياته ، جميل الصورة في صباه . وذكر له صاحب زهر الآداب في الجزء الأول من كتابه صورة رائعة هي أو في صورة ذكرت له في كتب الأدب فقد وصف عبد الله بن الجهم أبا نواس فقال : « كان أظرفهم منطقاً ، وأغزرهم أدبا ، وأقدرهم على الكلام ، وأسرعهم جواباً ، وأكثرهم حياء . وكان أبيض اللون ، جميل الوجه ، مليح النغمة والإشارة ، ملتف الأعضاء ، بين الطويل والقصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضحك ، حلو الصورة ، لطيف الكف والأطراف . وكان فصيح اللسان ، جيد البيان ، عذب الألفاظ ، حلو الشئال ، كثير النوادر . وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، راوية للأشعار راوية للأخبار » . ولقد كان والبة متهماً بدينه ، مغرقاً في فحشه وفجوره . وقد رسم له أبو العتاهية في أهاجيه صورة خلقة ليست دون صورة خلقه . فهو خفيف الحاذ ، أقيشر الخدين ،

أشقر في وجهه حمرة كحمرة الرئة . وقد ذكر أبو الفرج أن المهدي سأل عمارة بن حمزة (والى الأهواز عام ١٥٨ هـ) عن أرق الناس شعراً . فقال هو والبة . ثم سأل عمارة المهدي لم لا ينادمه ؟ ؟ فذكر له بيتين قالهما والبة فنجعل من روايتهما ، ما لها أنه يدب إلى كل جليس من جلسائه . وأردف المهدي قائلاً : « أو تريد أن نكون من جلسائه على هذا الشرط ؟ » فأية تهمة تلصق بالنواصي إذا ما ذكر خبر مجالسته وصحبته له ، فلم يحجم أعداء أذكىاء خبثاء كأعداء النواصي ، عن أن يستغلوها إلى أبعد حدود الشناعة ؟ .

أتمَّ النواصي دراسته في البصرة ، وأقام عاماً بالبادية . ولما وثق من نفسه ومن أدبه ، عقد النية على الذهاب إلى بغداد والإقامة بها ، ليجرب حظه في دار الحظوظ . وما كان له أن يعدو هذا الحلم الباسم ، والأمنية المشرقة ، أن ينزح إلى بغداد حيث المال والجمال ، والحياة الموفقة السعيدة .

في دنيا الرشيد والأمين

نرح « أبو نواس » إلى بغداد ، ولم يكن له معدى عن
النزوح إليها ، فقد كانت الحاضرة التي ينفق فيها الشعر وتجزل
لأصحابه فيها الهبات . ولم تعين الرواية تاريخ هذا النزوح .
وكل ما تذكره أنه كان في خلافة الرشيد وخلافة الرشيد فترة
طويلة تمتد من عام سبعين ومائة إلى عام ثلاثة وتسعين ومائة .
ففي أية سنة كان هذا النزوح ؟ وهل قدر على مدح الخليفة
إثر مقدمه ؟ وبأي البيوتات كان أول اتصاله ؟ ؟ هذه أسئلة
لا بُدَّ من الجواب عنها ، ولكن الجواب لا يستند إلى كتب
التاريخ ولا إلى كتب الأدب ، وإنما سبيله الظنُّ والترجيح
واستنطاق الحوادث وعسى أن نقدر .

قال شاعرنا الشعر — في البصرة — واشتهر بين أهلها به
وبمجونه . ومن الممكن أن يكون قد وصل شيء من هذا الشعر
إلى بغداد — إلى ندوات الأدب الخاصة — ولكن شهرته لم
تستفص إلا بعد أن أقام ببغداد ، واشتهرت طريقته في الشعر ،
ومذهبه في الحياة . ولهذا فلا نُدحه عن الترجيح بأنه لم يكن

يطمع في الوصول إلى خليفة في جلال الرشيد — يمدحه
وينصرف — إلا بعد أن يجيزه عليه ذو جاه قريب من الخليفة .
وإذا كان مدح الخليفة غير متيسر له ، فليُنزل بآماله درجة
أو درجات . ولعل في تقربه من هؤلاء الأكابر والعظماء القريبين
من الخليفة ، والذين يهبون الهبات التي لا تقلُّ عن هباته ،
ما يعوضه عن هذه الأمنية التي يهفو إليها قلب كل شاعر يردُّ
بغداد — في ذلك الحين — وهي مدح الرشيد وإنشاده والأخذ من
نائلة الغمر ، فهل عدا بآماله البرامكة ، وهم ألمع رجال ذلك العصر ،
وأسخاهم يداً ، وأكثرهم تقديراً للشعر ، وتفطناً لمواطن الجمال فيه ؟
لا نظن ! فما كان لشاعر أن يعدو عنهم برضاه . فقد مدحهم
النواسى وأطال . ولا شك أنه ضاع كثير من هذا المديح .
فهو يذكر غير مرة في معرض هجائه جعفرأ أنه قد مدحه كثيراً ،
ثم لا يذكر رواية شعره وجامعو ديوانه شيئاً من ذلك ، وأخذ من
عطاء البرامكة ولكنه كان عطاء مصرّداً لم ينقع غلته . فانقلب
عليهم يهجوهم الهجاء المقذع ، ويناصبهم العداء المؤلم .
وتذكر كتب الأدب حادثتين وقعتا له مع البرامكة ، إن لم
يكن فيهما كل السبب لهذه الجفوة بينه وبين القوم ، فقد زادت

في توسيعها ، وتمكين الشنان في القلوب . أولاهما أن يحيى ابن خالد البرمكي — ومن الروايات ما تذكر أنه الفضل — وكل إلى أبان اللاحق تصنيف جوائز الشعراء الذين يمدحونه فصنّف جائزة لأبي نواس لم يرضها . هكذا ذكر صاحب الأغاني ، وزاد ابن عبد ربه في الجزء الثالث من العقد أن أباناً بعث للنواسي بدرهم زائف بعد أن أعطاه الفضل أموالاً ليفرقها على الشعراء كلٌّ على قدره . والثانية تشبه هذه ولعلها هي بعد تحريفها قليلاً رواها الجهشياري ، وهي « أن الفضل بن يحيى فوّض إلى أحمد بن سيار تقدير جوائز الشعراء بعد أن أذن لهم الرشيد بمدحه ، عند منصرفه من ولاية خراسان ، فمشى إلى أحمد بن سيار هذا جماعة من الشعراء والأدباء منهم أبان ، وأشجع السامي ، وداود ابن رزين ، وغيرهم . وتحملوا عليه بسلام كان يحبه ليضع من شعر النواسي ولا يلحقه بنظرائه منهم . فلما عرض النواسي شعره عليه رمى به ، وقال هذا لا يستحق قائله درهمين . فهجّاه النواسي واتصل الخبر بالفضل فأرضى النواسي وصرف الجرجاني . »

فهل كانت هاتان الحادئتان سبباً لتباعده عن البرامكة . أو أن تباعده عنهم هو الذي حمل عليهما ؟ لعلّ الصواب

هو في مزج الحالتين . فتباعده عن البرامكة أغرى به شعراءهم ،
وتعزّم شعرائهم عليه باعد بينه وبينهم . ويلوح لى أن النواسى
رشّح نفسه لأن يكون شاعر البرامكة . وليس لدى من دليل
أقدمه غير استكناه الحالة النفسية التى يامحها القارىء فى هجائه
أباناً شاعرهم .

لزم أبان باب الفضل مدة طويلة وقدّم العريضة التى يطلب
بها « وظيفة شاعر الأمير الشاغرة » وكانت العريضة قصيدة منها .
أنا من بغية الأمير وكنز من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أريب ناصح راجع على النصاح
فعارضه النواسى هاجباً وكان مما قال :

أنت أولى بقلّة الحظ منى يامسمى بالبلبل الصداح
قد رأوا منه حين غنى لديهم أخرس الصوت غير ذى إفصاح
فيك ما يحمل الملوك على الحر ق ويزرى بالسيد الجحجاج

فما معنى قوله أنت أولى بقلّة الحظ منى ؟ ؟ أليس من معناه
أن لو أنصف الزمن لكنت أنا لا أنت عند هؤلاء القوم الذين
لا تجيد الغناء لديهم .

ولم يكتفِ النواسى بهجاء أبان بل عمّ بالهجاء كل شعرائهم
فقد هجا الخاسر ، والرقاشى ، وأشجع السلمى . ولعله لم يعف

عن ابن منذر وإن لم يُروَ هجاؤه فيه ، فقد كان ابن منذر سيء
الرأى فيه لا يكاد يطيق سماع شعره .

ويقول ابن رشيق في كتابه العمدة الجزء الأول : « ومن
قبيح ما وقع لأبي نواس الذي أساء به أدبه وخالف فيه مذهبه
أن بعض بني برمك بنى داراً استفرغ فيها جهده وانتقل إليها ،
فصنع النواسى في ذلك أو قريباً منه قصيدة يمدحه فيها ويقول
في مطالعها :

أربع البلى إن الخشوع لباد عليك وإني لم أخذك ودادى
وختمها أو كاد يختمها بقوله :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بنى برمك من راحلين وغاد
فتطير منها البرمكى (وهو الفضل - - لورود اسمه في هذه
القصيدة) ، واشمأز حتى كلج ، وظهرت الوجهة عليه . ثم قال
له : « نعيمت إلينا أنفسنا يا أبا نواس » . فما كانت إلا مُديدة حتى
أوقع بهم الرشيد وصحت الطيرة وزعم قوم أن النواسى قصد
النشأوم لشيء كان في نفسه من جعفر .

يئس من البرامكة ومن أن يكون شاعرهم ، فأنصرف إلى بيت
ينافس البرامكة ، وينفس عليهم دواتهم ، ويرأها فارسية وهو

بيت آل الربيع — وعميده الفضل بن الربيع الذى يتزعم الحزب العربى . وإذا كان من المتعذر تعيين السنة التى انصرف إليها فلا شك أنها تقع فى أيام زهو الدولة البرمكية . يقول النواسى :

قولا لهرون إمام الهدى عند احتفال المجلس الحاشد
نصيحة الفضل وإشفاقه أخلى له وجهك من حاسد
بصادق الطاعة ديانها وواحد الغائب والشاهد
أنت على ما بك من قدرة فلست مثل الفضل بالواجد

وهى أبيات يُرجح أنها قيلت لما تولى الفضل بن الربيع الحجابة . وقد وقع ذلك فى عام ١٧٩ هـ بعد أن عزل الرشيد محمد بن خالد البرمكى . ولا أظن أنها قيلت فى غير هذا الظرف . فالفضل تولى الحجابة فى هذا العام وتولى الوزارة فى عام ١٨٣ هـ بعد أن نكس البرامكة ، وبعد أن أُخلى له وجه الحاسد . والتهنئة بالوزارة لا تكون مثل هذه الأبيات ، والسرور البادى عليها يقسر الباحث على ردّ صلة الشاعر بهم إلى ما قبل هذا التاريخ ، بل هو قبل هذا التاريخ باعتراف الشاعر نفسه

ولا تفسدوا بى ود عشرين حجة ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل

كتب إليهم بهذه القصيدة التى منها هذا البيت وهو بسجن الأمير عام ١٩٥ للهجرة . فتكون معرفته إياهم وصلته بهم فى عام

١٧٥ هـ . ولعلّ هذا هو تاريخ قدومه بغداد . مدح البرامكة فلما لم ينفق عندهم كما يشتهي ، تقرب من هذا البيت ، وهو بيتُ جاهٍ وغنى ومكانة مرموقة عند الناس . ولعميده بعض الخطوة لدى الخليفة . نقول هذا ولا نرجحه كل الترجيح ، وإنما هو رأى نستمسك به حتى يتبين خلافه

يقول ابن الطقطقي في كتابه الفخرى: « إن الفضل بن الربيع لما صارت إليه الوزارة تهوَّس بالأدب وجمع إليه أهل العلم فحصل منه ما أراد في مدة يسيرة . وكان أبو نواس من شعرائه المنقطعين إليه . فهو شاعر آل الربيع ومادحهم قبل الوزارة ، والمنقطع إليهم بعدها . وجلة قصائده المبرزة في المديح هي فيهم .

آل الربيع فضلتهم	فضل الخيس على العشير
من قاس غيركم بكم	قاس الثماد إلى البحور
أين النجوم التالية	ت من الأهلة والبدور
أين القليل بنو القليل	ل من الكثير بنى الكثير
أدركتم جزر الخلا	فة وهي شاسعة المصير
لولا مقامكم بها	هوت الرواسى من ثبير

وفي تقرب النواسى من بيت الربيع بل في عدم ازوراره عنه ما يزيد الجفوة ويباعد كثيراً بينه وبين البرامكة . فقد

كان العداء مستحكماً ألماً بين هذين البيتين . وذكر صاحب كتاب الوزراء والكتاب « وعن عبدان بن سليمان أن من أسباب زوال دولة البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع »

ولا بأس هنا من كلمة في بيت الربيع الذي أصفاه النواصي وده ، وانقطع إلى مدحه . فهو بيت ليس بالعريق ، يبدأ مجده من الربيع أبي الفضل الذي استوزره المنصور لما رأى فيه من النبل والجلال . وبقى وزيره طوال أيام المنصور ، ثم تولى حجاب المهدي ، ودس له الهادي السم فمات . أما ولده الفضل فقد تولى حجاب المنصور والهادي . ويذكرون أنه تولى حجاب المهدي ، فيكون تناوب العمل في هذه الوظيفة ووالده . وفي خلافة الرشيد تولى ديوان النفقات في عام ١٧٢ هـ ، ثم الحجابة ، ثم الوزارة . هذا هو تاريخ الأسرة « من وجهة رسمية » ، ومنزلاتها الرفيعة عند الخلفاء . وقد استفادت من ذلك مالا كثيراً . فقد ذكروا أن الربيع تناول من يعقوب بن داود مائة ألف دينار ليعمل له عند الخليفة فيتخذه وزيراً ؛ وقد تم ذلك في خلافة المهدي ، هذه صفقة رواها التاريخ ومثلها لم يرو كثيراً ، أما تاريخ الأسرة فيما عدا الحجابة والوزارة فتاريخ الدهاء والفطنة والبصر بمواقع الأهواء ،

ومواطن رضى الساسة والأمراء ، وانطواء على الضغن ، وإجادة في الدس والوقيعة .

استطاع الربيع أن يوغر صدر المهدي على وزيره الداهية معاوية بن يسار . وما زال يلح عليه ويرأوه ويقاديه بالنيمة حتى طلب المهدي إلى وزيره أن يقتل ابنه بيده تقرباً إلى الله بعد أن استطاع الربيع إقناعه بزندقته . لم يقتل الوالد ولده ، ولكن الخليفة أمر غيره بقتله . ولم يكتف الربيع بهذا فما زال بالخليفة حتى أمر وزيره أن يقيم ببيته ولا يأتيه .

قال صاحب الفخرى : « دخل معاوية يوماً على المهدي وهو وزيره يعرض عليه كتباً وردت من بعض الأطراف . فطلب من المهدي إخلاء المجلس ، فخرج كل من به إلا الربيع . فلم يعرض أبو عبيد الله شيئاً من تلك الكتب ، وطلب أن يخرج الربيع . فقال له المهدي : « ياربيع اخرج » ، فتنحى قليلاً . فقال المهدي : « ألم أمرك بالخروج ؟ » قال : « يا أمير كيف أخرج وأنت وحدك ، وعندك رجل من أهل الشام اسمه معاوية وقد قتلت بالأمس ولده ، وأوغرت صدره ، فكيف أدعك معه على هذه الحال وأخرج ؟ » فثبت هذا المعنى في نفس المهدي ، إلا أنه قال :

« يا ربيع إنى أثق بأبى عبيد الله . أعرض يامعاوية ما تريد فليس دون الربيع سرّ » وأدل من هذا على خلق الربيع و بصره بمداواة الرجال ، ومسايرة الزمن ، ثم انطواء نفسه على الضعينة والحقد أن نعلم أسباب هذه الخصومة . فقد روى صاحب الفخرى — أيضاً — أنه لما توفى المنصور وأخذ الربيع البيعة للمهدى ، قدم من الحجاز وحضر من ساعة وصوله إلى باب الوزير المذكور فقال له ابنه الفضل : أقبل منزل الخليفة ومنزلنا ؟؟ فقال : « نعم يا بنى هو صاحب الرجل ، والغالب على أمره ؛ فلما وصل وقف ساعة حتى خرج الحاجب . فلما دخل لم يقم له ثم سأله عن سيره وحاله ، فأخبره ، وشرع الربيع يحدثه بما جرى في مكة حتى موت المنصور ، واجتهاده في أخذ البيعة للمهدى . فسكته وقال : « قد بلغنى الخبر فلا حاجة إلى إعادته » فاغتاز الربيع ولكنه أثر السكوت ، ثم قام وخرج وقال لابنه : « على كذا وكذا إن لم أبذل مالى وجاهى فى مكروهه وإزالة نعمته » وما زال حتى فعل .

وكأنما انحدرت هذه الفطنة والدهاء والميل إلى الوقيعية والمعرفة بمواقع الدسيسة إلى ابنه الفضل فورثها فى جملة ما ورث عن أبيه . فهما اختلفت الأسباب وتعددت الأقوال فى العوامل التى دعت

إلى نكبة البرامكة من إدلال على الخليفة ، إلى العمل بغير إذنه وما لا يوافق هواه ، إلى حكاية العباسية إلى حسد الخليفة ، إلى غير هذه ، فلا مرأى في أن للفضل يداً في هذه النكبة . فقد كانت له عيون عليهم وهو الذي أنمى إلى الرشيد خبر إطلاق جعفر البرمكي يحيى بن عبد الله بن الحسن الثائر الطالبي . وقد قيل إن هذا هو السبب الذي قتل من أجله جعفر ؛ وكان بينه وبينهم ملاحاة في مجلس الرشيد

تلك هي الأسرة التي كاد ينقطع إليها النواصي في بغداد وقد أكثر من مدحها ، والتي لا ريب في أنه استفاد من معروفها وخيرها الشيء الكثير فهل قدر الفضل على إيصاله إلى الرشيد ؟ لا مشاحة في أنه لم تكن له مثل هذه القدرة في زمن البرامكة ، وإذا كانت فأحر بها أن تكون بعد توليه الوزارة .

ذكر الطبري في تاريخه أن الرشيد جدد البيعة لولديه المأمون والقاسم بعد أخيهما الأمين ، وسمى القاسم بالمؤتمن عام ١٨٩ وذكر أن النواصي قال في ذلك قصيدته التي منها :

تبارك من ساس الأمور بعلمه	وفضل هروناً على الخلفاء
نعميش بنخير ما انطوينا على التقى	وما ساس دنيانا أبو الأمناء

وحادثة تجديد البيعة تأتي بعد وزارة الفضل بسنتين ، فهل مدح الرشيد قبل ذلك ؟ من المرجح أن تكون قصيدته التي يقول فيها :

يلقى جميع الأمر وهو مقسم	بين الناسك والعدو الموفق
حتى إذا أمضى عزيمة رأيه	أخذت بسمع عدوه والمنطق
لأنى حلفت عليك جهد ألبة	قسماً بكل مقصر ومحاف
لفد اتقيت الله حق ثقاته	وجهدت نفسك فوق جهد المتقى
وأخفت أهل الشرك حتى إنه	لتخافك النظف التي لم تخلق

قيلت بعد نصرة الرشيد على نقفور في عام ١٨٧ هـ فقد كان هذا الانتصار موسماً للشعر والشعراء تباروا في مدح الرشيد بالقصائد الجياد . مدحه أبو العتاهية بقصيدتين ذكرها الطبري في حوادث هذا العام ، ومدحه محمد التيمي بقصيدة وأشجع السلمي بالقصيدة التي ذكر منها صاحب الأغاني هذا البيت :

لا تبعد الأيام إذ ورق الصبا خضل وإذا غض الشباب نضير

وللنواصي قصيدة ثالثة في مدح الرشيد وهي التي يقول فيها :

في كل عام غزوة ووفادة تنبت بين نواها الأقران

ومن النظر في أبياتها يرجح أنها قيلت بمناسبة القلنسوة التي لبسها الرشيد وكتب عليها « غاز حاج » . وهي بعد تاريخ

القصيدة الثانية بثلاث سنوات ، فتكون قصيدة عام ١٨٧ للهجرة هي أول قصيدة قالها في مدح الرشيد ؛ وهو العام الذي تولى فيه الفضل الوزارة ؛ ولعله لهذا هو العام الذي طمع فيه بالوصول إلى سدته . فهل وصل إليها ؟ وكيف كان موقف الخليفة منه وما مقدار جائزته ؟ الأرجح أن النواصي وصل إلى الرشيد ، ولا شيء يمنع ذلك .

كان الرشيد يسمع شعر النواصي ويتذوقه ويعجب ببعضه . وما كان ليصحح غير ذلك من خليفة كهرون ، له ذوقه الرفيع في الشعر ، وتقدير شعراء عصره الذين كاد النواصي يتغلب عليهم . روى أبو الفرج في أغانيه « عن المفضل بن اليزيدي قال : حدثنا إسحاق الموصلي قال دخلت على الرشيد يوماً وهو يخاطب جعفر بن يحيى بشيء لم أسمع ابتداءه وقد علا صوته . فلما رأيته مقبلاً قال لجعفر : أترضى بإسحاق ؟ قال جعفر : والله ما في علمه مطعن إذا أنصف . فقال : أي شيء تروى للشعراء المحدثين في الحمر ؟ أنشدني أفضل ما عندك ، وأشدّه تقدماً . فعلمت أنهما كانا يتماريان في تقديم أبي نواس فعذلت عنه إلى غيره لئلا أخالف أحدهما فقلت : لقد أحسن أشجع بقوله :

ولقد طعنت الليل في أنحازه بالكأس بين غطارف كالأقنعم
يتمايلون على النعم كأنهم قضب من الهندي لم تشلم
فقال لي الرشيد : قد عرفت تعصبك على أبي نواس وإنك
عدت عنه متعمداً . ولقد أحسن أشجع ولكنه لا يقول أبداً مثل
قول النواصي :

يا شقيق النفس من حكم نمت عن البلى ولم أتم^(١)
فقلت له : ما علمت ما كنتما فيه يا أمير المؤمنين ، وإنما
أنشدت ما حضرني .

فقال : حسبك قد سمعت الجواب . . . »

وهذه الحكاية تدلُّ على شيئين ، أولهما أن الرشيد كان يستطيب
شعر النواصي ويفضله على غيره ، ويرى أنه صاحب طريقة في
وصف الخمر لا تعلو عليها طريقة ؛ والثاني وهو أكثر من هذا
أهمية هو ميل جعفر عنه ، وتعصبه عليه . فلا جرم أن الرشيد كان
يماريه وقد علا صوته — كما ذكر إسحق — ليقنعه بخطأ رأيه
وذكر ابن منظور في كتابه بعد أن أورد نوادره مع الرشيد
واتصاله به ما يلي « وقال بعض المترجمين ممن يحيط علماً بأحوال

(١) نرجع رواية ابن قتيبة في أن هذه القصيدة لوالبة وقد ذكر
أبو الفرج أيضاً — في غير هذا الموضع — أنها لوالبة

أبي نواس إن هذه الحكايات والنوادر عنه وعن الرشيد موضوعات وإن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ، ولا رآه ، وإنما دخل على محمد الأمين وما ملك النواسي عشرين ألف نواة ، فكيف بعشرين ألف درهم . أما أن هذه النوادر موضوعة فما لا شك فيه . وأما أنه لم يدخل على الرشيد ولم يره ، ففيه كل الشك ، ولا يثبت عند تحقيق . فالرشيد البصير بمنزلة النواسي الأدبية وأنه إن لم يكن أعظم شعراء عصره فهو أوسعهم شهرة ، لا يغتفر له إن أغفل مدحه ، ولم يأت إلى بابيه مع الشعراء ، يُجيز هذا المنطق ويُجيز أكثر منه قليلاً . ولكنه لا يُجيز بحال أن يقبله شاعراً له ، متصلاً به . فقد اشتهر النواسي واشتهرت معه طريقته الفاجرة بالحياة ، وتغنت بغداد بها .

عند الخصيب

من الرواة من يذكر أن الخصيب استزاره لأنه كان يعرفه ببغداد . وليس ما يمنع ذلك . فولاية الخصيب في زمن وزارة الفضل بن الربيع . ويذكر ابن منظور أن النواسي دخل عليه في رضى الشطار ، وأن الخصيب ازدراه لذلك . وهي رواية ساقطة .

فما كان للنواسي أن يفعلها وقد أمضى أيامه ببغداد يتقلب في
 غدواته بين دور البرامكة ، وآل الربيع ، وقصور الأمراء ،
 مثل أبي عيسى والعباس وغيرهما . ويعرف ما يجب عليه أن يفعل
 في مجالسهم . ولم يتعلقوا به بغلطةٍ مثل هذه . ولا يجوز أن يكون
 استخف بالخصيب ، وقد ارتحل من بغداد وبينها وبين مصر
 شقةٌ بالغة . وقد ذكر النواسي الطريق التي سلكها إلى مصر فمن
 « عفر فوت » وهي قرية على نهر دجيل ، تبعد عن بغداد ستة
 فراسخ ، إلى « عين أباغ » وهو مكان وراء الأنبار . ثم اتبع
 طريق الفُرات حتى النقيب ، فتدمر ، فالشام . ومنها إلى الجولان
 فبيسان ، فالرملة . ومن هذه إلى غزة هاشم ، فالعرش ،
 فقسطاط مصر ، وذلك تفسير قوله ^(١) :

رحلنا بنا من « عفر فوت » وقد بدا	من الصبح مفتوح الأديم شهير
فما نجدت بالماء حتى رأيتهَا	مع الشمس في عيني أباغ تنور
وغمرن من ماء النقيب ^(٢) بشربة	وقد حان من ديك الصباح زمير
ووافين إشراقاً كنائس تدمر	وعن إلى وعن المدخن صور
يأمن أهل الغوطين كأنما	لها عند أهل الغوطين مؤور

(١) رجعنا لتحقيق هذه الأسماء إلى معجم البلدان

(٢) ذكر صاحب معجم البلدان أن النقيب موضع بين تبوك والشام وليس
 هذا نقيب النواسي

وأصبحن بالجولان برضخن صخرها ولم يبق من أجراحهن شطور
وقاسين ليلا دون بيسان لم يكد سنا صبحه للناظرين ينير
وأصبحن قد فوزن من نهر فطرس وهن عن البيت المقدس زور
طوالب بالركبان غزة هاشم وفي القرما من حاجهن شقور
ولما أتت فسطاط مصر أجارها على ركبها أن لا تزال مجير

ومن الجولان إلى بيسان أية طريقٍ سلك؟ فلا بُدَّ له من
المرور بوادي الأردن . فهو أقرب طريق من الجولان إلى بيسان .
ومن يدرينا ! فلعلَّ جبال عجلون المُطلَّة على هذا الوادي الحصيب
شاقته بمنظرها . والظاهر أنها لم تكن مشهورة بشجرة الكرمه
شهرتها في زمن اسرائيل ، أو في الزمن الحاضر . فلم تستوقف
نظره ليتغنى ويصف . ومدينة بيسان نفسها كانت من مدن
الأردن في ذلك الحين . وقد طالَّت إقامته بمصر — بعض
الشيء — فهو يحنُّ إلى بغداد .

ليس لي مسمد بمصر على الشوق إلى أوجه هناك حسان
إذ لباب الأمير صدر نهاري ورواحي إلى بيوت القيان

وتختلف الرواية مرة ثانية في المنزلة التي وصل إليها النواصي
عند الحصيب . فمنها ما تذكر أنه نادمه ؛ على أن الواضح أنه
استطاب مجلس النواصي ومدحه ؛ بدليل أن هذه الزورة
طالت ولو بعض الشيء كما أسلفنا . وما كان له أن يفرط في مثله

وهو يعرف قوته الأدبية في العاصمة التي ياتمر بأمر رجالاتها .
وهو يعرف - أيضاً - صلته بوزير الدولة الفضل . ولا يعنى
ذلك أنه كان يتحسب منه من ناحية سياسية ، ولكنها عوامل
تزيد قيمته ولندع حديث الرغبة والرغبة ، فالمدح البارع ،
والذكر الحسن ، أشياء تشتاقيها الأنفس ، ولا سيما أنفس الولاة
والحكام . ومن هو الخصيب لولا النواسى ؟؟ هو والٍ لارشيد
على مصر ، وكـ لارشيد من والٍ عليها ، فمن يذكركم ؟ لقد مررت
على أسمائهم كلهم ، وها أنا كاد أنساها ، ولما أفرغ من البحث
الذى مررت بأسمائهم بسببه . أما الخصيب فهيئات أن ينساه
قارئ أدب . إنه إن هم ذكرته إياه القصيدة التي منها :

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا فأى فتى بعد الخصيب نزور
لقد ابتنى فى مصر بلدة « منية » ، وما تعدل فى عالم الشهرة
والخلود أية بلدة هي بجانب قصيدة النواسى أو قصائده فيه .
ولم تستطع مصر فى ذلك الحين أن تشبع رغائب الشاعر
المتفنون بالمجون ، الشره للجمال . فقفل راجعاً إلى البلد الزاخر به ،
والذى يعجُّ بكل ما هو جميل . عاد ليواصل سيرته ، ويقسم
ساعات يومه . فصدر النهار لدا ب الأمير ، وعلة الفضل بن الربيع ،

فقد كان يلقب الوزير بذلك ، وفي الليل يروح على بيوت القيان .
عاد لينقطع إلى الفضل وليشرك معه بعض الحين أمراء منهم
العباس الذي مررنا بذكره ، ويهمننا مما قاله فيه بعد عودته من
مصر قصيدته التي منها :

حلفت يميناً برة لا بشوبها	جاروما دهرى يمين جبار
لقد قوم العباس للناس حجهم	وساس برهبانية ووقار
وأطعم حتى ما بمكة آكل	وأعطى عطايا لم تكن بضمار

هذه الأبيات تعيننا على تعيين تاريخ نحن حريصون على
تحقيقه . فقد ذكر المسعودى أن العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر
بن المنصور حج في الناس عام ١٩٢ هـ . ونرجح أن أبا نواس
يشير إلى حجه في هذه السنة . ولم الترجيح وإنما هو التأكيـد .
فقد رجعنا إلى الطبرى في أسماء الذين حجوا في الناس في خلافة
الرشيد فلم يكن من بينهم العباس إلا في هذه السنة . وكان أبوه
أمير الحج في عام ١٨٨ هـ ، وتحقيق هذا يفيدنا أكبر فائدة
في تأريخ سجن الشاعر في زمن الرشيد كما سيري القارىء .

انتهت فترة خلافة الرشيد ، وكان حظ النواصى منها الاتصال
الوثيق بالفضل وأبنائه ، ومن ولاته بالخصيب . وليس هو

بالاتصال ، وإنما هو انتجاع المرفد وعودة ، واتصال قليل . بطائفة
من الأمراء ، وقد غلبه حسين الضحك الشاعر على صالح وأبي عيسى
ولدى الرشيد فراح يسعى للاتصال بولي العهد الأمين .

مع الأمين

مدح النواسي الأمين غير مرة وهو ولي عهد :

مد الإله عليه ظل مملكة يلتقي النصي بها والأقرب الداني
إن يمسك القطر لا تمسك واهبه ولي عهد يده تستم لان

ولكنّ هذا المديح لا يعين مقدار هذه الصلة . فقد مدحه كثير
غيره من الشعراء « حتى شكوا الرشيد إلى علي بن العباس أن
الشعراء قد أكثروا من ذلك لمكانه منه ومن أم جعفر وكادوا
ينسون المأمون » . ولا يعين هذه الصلة أيضاً إطلاقه إياه من
سجن أبيه . فقد تم ذلك بوساطة الفضل وشفاعته المقبولة عنده .
ولعلّ فيما ذكره ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء »
ما يعينها ، ويبين درجتها ، أكثر من ذلك .

قال : « إن الرشيد أمر إبراهيم بن عثمان بن نهيك أن لا يأوى
النواسي إلى عسكره من ليلته . فقال الأمين لابراهيم : والله لئن

حصصت منه شعرة لأقتلنك . فأقام عند ابراهيم حتى مات هرون وأخرجه محمد الأمين . » والسبب الذى أمر الرشيد بسجن الشاعر من أجله معروف وإن لم يذكره ابن قتيبة ، وما هو إلا القصيدة التى هجا بها مضر ، والكاتب يروى عن أناس عاصروا الشاعر فهو ثقة . والحكاية داليل على بلوغه لدى الأمين (ولى العهد) منزلة رفيعة يتهدد من أجلها رئيس شرطة أبيه بالقتل إن جرى أو جرؤ عليه بمكره . بيد أن هذه المنزلة ما كان لها أن تتحوّل — فى زمن الرشيد — إلى أكثر من علاقة شاعر يمدح ولى عهد المسلمين لرفده وعطائه . وبعض الروايات تزيد فى هذه العلاقة حتى تجعل من الشاعر — ابن المدينى — مرة ثانية . لا فى قصر الأمين ولى العهد ، ولكن فى قصر الأمين الخليفة .

طمع النواسى فى أن يكون شاعر الأمين — حينما أصبح خليفة — وأن يختص به ويصل منه إلى مرتبة النديم ، وكل الظروف تساعد على ذلك .

فإن لم يقدر الفضل بن الربيع على الوصول بشاعره إلى سدة الرشيد ، فهو قادر على الوصول به إلى مجلس هو الأمين ،

فقد ذكره له وأطراه . ولما جاء الشاعر ليقابل الخليفة ، قال
 ابن جرير الطبري : « وقال له الأمين كن من ندمائي »
 بلغ أمله ، وأدرك أمانيه ، ووصل إلى المنزلة التي تتطال إليها
 الأعناق ، وتقطع دونها قلوب الشعراء . شاعر الخليفة ونديمه !
 لقد كاد يجن بهذه الخطوة « رضينا بالأمين عن الزمان » وأى
 رضى ! ليس بعده ولا قبله من رضى يدانيه . صار نديمه وصار
 شاعره . فهو يقبل عليه بالمدح مسرعاً ، لا يتأنق فيه كما اعتاد .
 وأكثره من الشعر الذي ترغمه على قوله الحوادث . فإذا اتخذ
 الخليفة سفينة على هيئة الأسد ، أو الدافين ، أو الحية ، أو العقاب
 سارع إلى أن يقول فى هذا شعراً ، إن لم يرض رجال الأدب ،
 فقد أَرْضى به خليفته وحسبه هذا :

قد ركب الدافين بدر الدجى	مقتحماً للماء قد لججا
فأشرقت دجلة من نوره	وأُسفر الشيطان وابتهجا
عجب الناس إذ رأوك على صو	رة ليث يمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه	كيف لو أبصروك فوق العقاب

وهو من فرط جنونه بهذه المنزلة يسرف فى مدح الأمين ،
 ويبالغ كثيراً . وقد رَووا له أبياتاً فى هذا المعرض أوشكت أن

ترديه في هاوية من الإلحاد ، وما زال نديم الخليفة وشاعره .
 فمن تحصيل الحاصل القول إنه اكتسب جاهاً ضخماً ، ومكانة
 مرموقة عند الناس . فقد جاء في الأغاني وصف لهذه المنزلة فإن
 لم يذكر أن هذه الحادثة وقعت للنواصي في زمن الأمين ، فلا
 سبيل إلى حملها على غير عهد الأمين : « عن الحسن بن علي
 بإسناد عن هرون بن سعدان قال : كنتُ مع أبي نواس قريباً
 من دور بني نيبخت بنهر طابق ، وعنده جماعة ، فجعل يمر به
 القواد والكتاب وبنو هاشم فيسلمون عليه وهو ممدود الرجل
 لا يتحرك لأحدٍ منهم حتى مرَّ به أبو العتاهية
 فوقف له . ولكن كم دامت عليه هذه النعمة ؟ أقصرت مدتها
 أم طالت ؟ الأرجح أنها لم تدم أكثر من سنتين . فقد انبعثت
 الفتنة بين الأخوين ، وسُيِّرت الجيوش لتقطيع الأرحام ، وتواترت
 الروايات على أنه ترامي للأمين الكلمة التي فاه بها الحسن بن سهل
 في خراسان ، وهي : كيف لا يحل قتال الأمين وشاعره ونديمه يقول :
 ألا فاستقنى خيراً وقل لي خير ولا تستقنى سراً إذا أمكن الجهر

فغضب على شاعره ، واتهمه بالزندقة ، ووجد من بني هاشم
 من يغريه عليه ، فزجَّ به في السجن ، ثم أطلقه . ولكنها الفتنة ،

صيرت أمر الأمين إلى انتكاس فجيوشه تهزم وتحطم ، وجنده يشغب به .

يذكر ابن قتيبة أن الأمين وصله بعشرة آلاف درهم حينما بعثه من قبره ، كما يقول النواصي في نعت سجنه . وهي عطية ليست بالبالغة ، بل إنها دون ما اعتاد أن يعطى . فهل عاد إلى مدحه ومنادمته بعد السجن ؟؟ يتفرد الطبري في تاريخه بهذه الرواية وهي « ذكر يعقوب بن اسحق عمن حدثه عن كوثر خادم الخلع أن محمداً أرق ذات ليلة وهو في حربه مع طاهر ، فطلب من يسامره فلم يقرب إليه أحد من حاشيته . فدعا حاجبه وقال له : ويلك قد خطرت بقلبي خطرات فأحضرنى شاعراً ظريفاً أقطع به بقية ليلتي . فخرج الحاجب فاعتمد أقرب من بحضرته فوجد أبا نواس ، فقال له : أجب أمير المؤمنين . فقال له : لعلك أردت غيري . قال : لم أرد أحداً سواك . فأتاه به فقال : من أنت ؟ قال : خادمك الحسن بن هانيء ، وطليقتك بالأمس . قال : لا ترع . عرضت بقلبي أمثالاً أحببت أن تجعلها في شعر ، فإن فعلت ذلك أجزتُ حكمك فيما تطلبه . فقال : وما هي يا أمير المؤمنين ؟ قال : قولهم « عفا الله عما سلف » و « بئس والله ماجري فرسى » و « اكسرى

عوداً على أنفك» و « تمنعني أشهى لك » قال فقال أبو نواس :
حكى أربع وصائف مقدودات . فأمر باحضارهن فقال :

فقدت طول اعتلاك	وما أرى في مطالك
لقد أردت جفائي	وقد أردت وصالك
ماذا أردت بهذا	تمنعني أشهى لك

وأخذ بيد وصيفة وعزلها وقال :

قد صحت الأيمان من حلفك	وصحت حتى مت من خلفك
بالله ستي فاحنثي مرة	ثم اكسري عوداً على أنفك

ثم عزل الثانية وقال :

فدبتك ماذا الصلف	وشتك أهل الشرف
صلى عاشقاً مدنفاً	قد اعتب مما اقترف
ولا تذكرى ما مضى	عفا الله عما سلف

ثم عزل الثالثة وقال :

وباعثات إلى في الغلس	أن ائتنا واحترس من العس
حتى إذا نوم العداة ولم	أخش رقيباً ولا سناً قبس
ركبت مهرى وقد طربت إلى	حور حسان نواعم نعس
فجئت والصبح قد نهضن له	فبئس والله ما جرى فرسى

فقال له : خذهن لا بارك الله لك فيهن » . وليس في هذه

الرواية ما يمنع من قبولها وتصديقها . فأربع جوارٍ لا قيمة لهن ،
يمنح مثلهن حاجب الخليفة ووزيره . وأبو نواس وإن لم يكن

يجرى مع أبي العتاهية في البديهة والارتجال ، إلا أنه قادرٌ عليه .
وله مع رفاقه الشعراء مساجلات ومطارحات هي عفو الساعة
وأجود من الأبيات المروية . والأمثال التي أراد الخليفة نظمها
شعراً تجرى مع شبه الحال التي هو فيها ، فهو يرى أن أمره صائرٌ
إلى الزوال . فلعله فكر في ذلك فلام جدّه العائر وتمثل « بئس
والله ما جرى فرسى » . ثم تمنى أن يعود حاله وحال أخيه إلى
ما كان عليه و « عفا الله عما سلف » . ثم إن المثليين الآخرين
لا يبعدان عن وصف ما هو فيه فهم في حديث الخيبة والإخفاق ...
بقي شيء آخر دخل الحكاية فأضعفها ، وهو سؤال الأمين
لأبي نواس من أنت ؟ . إن هذا السؤال لا يمكن أن يحمل على
محمل الاستفهام ، إلا إذا افترضنا أن الخليفة لم يكن يسمر
في قصره ، بل في إحدى شرفاته . وفيما عدا هذا فهو استخفاف
وإنكار . أيسأل الأمين النواصي من أنت ، ويحييه بالحسن
ابن هاني ، وأين المدح الغالي ، وأيام المنادمة ولياليها ، وأحاديث
السمر الفكه ؟ وإذا جوزنا هذا الافتراض وهو أن الخليفة كان
يسمر في شرفة ولم يتبينه ، أو استخف به ، وأخذنا بهذه الحكاية
وهي مقبولة رغم نقطة الضعف فيها ، بقي جواب الخليفة وهو

« لا ترع » — وهى كلمة تدلُّ على أن النواسى لا يزال يتحسب من الخليفة ، وأن الخليفة يقدر هذا . وهى حالٌ لا تعين على أن يكون النواسى قد عاد إلى موضع حب الخليفة وإشاره ، وسابق مكانته عنده . ومن العبث القول بعد هذا إنه لم يعد إلى منادمته . فقد أخذ يشتدُّ في نهيه عن شرب الخمر . وأبو نواس يقول في هذا شعراً ويذيعه . ولعلَّ الخليفة يؤثر هذا الشعر وإذاعته ، ليسمع به الناس ولتنقله الركبان إلى فارس فيكون فيه الرد الكافى على كلمة الحسن بن سهل :

أيهما الرائخان باللوم لوما	لا أذوق المدام إلا شميما
نالى باللام فيها إمام	لا أرى لى خلافه مستقيما
فاصرفاها إلى سواى فانى	است إلا على الحديث نديما

إلى غير ذلك من القصائد التى تصف نهى الأمين له عن الشراب ، وتأوّهه على ذلك ، وإطاعته له فيه .

ومما يزيد في هذا الترجيح ، وهو أن النواسى لم يعد إلى سابق مكانته عند الخليفة ، أننا نرى في هذه الفترة من حياة الأمين غلبة شاعر آخر عليه ، هو الحسين الخليل الذى أخلص له وتفانى في حبه ،

حتى موته ، وأكثر من هجاء المأمون حتى أشفق عليه
أبو العتاهية فنهاء

ولعل في حديث غلبة هذا الشاعر على الأمين ، وسجن
الخليفة للنواصي ، ما يفسر لنا الأبيات التي تقع عليها فيما روى
الأدب لأبي نواس وفيها تعريض بمحمد الأمين ، حتى قال المأمون
إني لأتوقع أن يهرب إلينا .

غنى بين الحقيقة والخيال

تقول الأساطير الموروثة وليالي « ألف ليلة وليلة » إن النواصي
شاعر الخليفتين الرشيد والأمين ، وإنهما استطابا مجلسه وفكاهته
فهو يدخل متى شاء وينصرف متى أراد .

ويقول التاريخ إن هذين الملكين — الرشيد والأمين —
يعطيان بغير حساب من هذه الأموال التي تتدفق عليهما بغير
حساب . فمن لحظاه برضى فقد أغنياه . فهو في نعم وآلاء ، له
الجوارى والغلمان ، وله إن أعقب الرضى رضى القصور ذات
الرياش ، والضياح العامرة الفساح .

وتقول أساطير « ألف ليلة وليلة » وكأنها « تتمنطق » : وما زال

النواسى النديم المصطفى ، والمهرج الذى يخف على قلب الملكين ،
 فله الحظ الأوفى من هذه النعم ، وأيسر أعطياته ما شاءت ساعة
 الرضى ، من ذهب وجوهر . ويأتى التاريخ ليصحح الأسطورة
 فى موضع ، ويقرها فى مواضع . فالخليفةتان كلاهما أخرق المنحة
 مسرفاً فى العطية ، ومنها الذهب والجوهر . ولكن النواسى لم
 يكن بالموضع الذى وصفت من الرشيد . نادم الأمين مديدة
 كانت فى أخريات أيامه . ولم يكن حظه منه ما أمل وهو
 القائل له :

أقصيته ونسبته ولعمدة بك غير ناس
 قد كنت أمل غير ذا لو كنت تنصف فى القياس

فصحى يا أسطورة هذا الموضع من الكتاب . فتقول
 الأسطورة : ولكنه أمتع ما فى الكتاب . . فامض يا تاريخ
 لوجهتك وسأمضى أنا ، وسترى أينما الأقوى . إن خفائك تعيش
 فى أذهان بعض الناس . أما أوهامى فى أذهان كل الناس . ولئن
 كانت حكاياتك فى أذهان هذه الفئة من أصحابك عرضة للشك ،
 ومظنة للارتياب ، إن أوهامى فى أذهان أصحابى فوق الشك
 وفوق كل ارتياب .

فإذا ذكر النواصي ذكر الرشيد وذكر الأمين ، وذكر الثراء
والنعم الموصولة السابغة ، فهل هذا هو الصحيح ؟

قدم النواصي بغداد ، لا يملك من الأداة التي تعين على
العيش في العاصمة ذات التكاليف إلا الشعر ، وهو نعم الأداة
— في ذلك العصر — يستطيع صاحبها أن يعيش بها ويدرك
الجاه والثراء إن واثاه الحظ ، وأسعفته المقادير ، وكأنه وهو
يجتاب ما بين البصرة وبغداد يتغنى بأبياته ، أو يزور معناها في
خلده إن لم يك نظمها بعد .

سأبغى الغنى إما جليس خليفة	يقوم سواء أو محيف سبيل
بكل فتى لا يستطار جناه	إذا نوه الجمعان باسم قتيل
نخمس مال الله من كل فاجر	أخى بطنه للطيبات أكل
ألم تر أن المال عون على التقى	وليس جواد معدم كبخيل

وأسعفه الدهر ، فمدح خليفة هو الرشيد ، وجالس خليفة هو
الأمين . فهل أدرك المال الذي يقول (إنه عون على التقى)
لو كان التقى يدرك به فحسب لكان من أتقى خلق الله . فقد
أخذ من الذين مدحهم مافيه الكفاية وفوق الكفاية . وعاش
دهره هذه العيشة المرفهة الموسعة مع أن ما أخذه من هذا المال

هو دون قدره — فى عالم الشعر — ودون حظ زفاقه من الشعراء
ومن يعلو عليهم درجات .

فقد ذكرت كتب الأدب أن سائماً الخاسر خلف ثروة طائلة
تقدر بخمسين ألف دينار عدا الضياع ، ومثله بل يزيد عليه مروان
ابن أبى حفصة الذى تناول من يد الرشيد على قصيدته التى
يقول فيها :

وشدت بهرون الثغور فأحكمت به من أمور المسلمين المرائر
أبوك ولى المصطفى دون هاشم وإن رغمت من حاسديك المناخر

جائزة قدرها خمسة آلاف دينار ، وخلعة ، وعشرة من الرقيق
الرومى ، وبرذوناً من خاصة مركبه^(١)

وذكرت أن أباناً اللاحق أخذ منه جائزة قدرها عشرون ألف
درهم على قصيدته التى منها :

نشدت بحق الله من كان مسلماً أعم بما قد آفاته العجم والعرب
أعم رسول الله أقرب زلفة لديه أم ابن العم فى رتبة النسب^(٢)

ولا يقلُّ عن هؤلاء بل يزيد عليهم حظُّ العتاهى ، وإذا
كانت قصيدتا ابن أبى حفصة وأبان قيلتا لغرض سياسى ،

(١) الطبرى الجزء السادس صفحة ٥٢

(٢) الأغانى جزء ٢٠ صفحة ٧٥

فتكافأت جوائزهما مع مقدار التشيع للبيت العباسي ، والنفاق لرجاله بالزراية على البيت العلوي ، فقد ذكرت كتب الأدب أن غيرهما أخذ من الرشيد جوائز لا تقل عن هذه . ذكرنا أن الشاعر العماني أخذ من الرشيد جائزة قدرها ثلاثون ألف دينار^(١) على قصيدته التي وصف بها مناعم بغداد وسلك فيها جانب الفكاهة حيث يقول :

ثم أنوهم بالدجاج الدجج بين شواء وقديد منضج .

فماذا أخذ النواسي من الرشيد ، وقد مدحه في ثلاث قصائد أو أكثر ؟ لم تذكر كتب الأدب شيئاً من ذلك . ولا مريّة في أنه أخذ — لو أنه وصل إليه — فما كان لشاعر أن ينصرف من لدن الخليفة الرشيد ، بدون هبة ؛ ولا مريّة أيضاً في أنه إذا وصل إليه وأخذ شيئاً فقد كانت الهبة دون تلك ، لأنها لو كانت وافرة لذكرتها الروايات . على أن عطايا الخليفة ليست هي المورد الرئيسي للشعراء ؛ فهناك الأمراء والوزراء . فما هو حظّ النواسي منهم ؟

هناك البرامكة وأعطياتهم البالغة . جاءهم النواسي وهم كما

يصفى مدح الفضل بن يحيى (ترى الناس أفواجاً إلى باب داره)

وهو وإن ظل يقبل ويدبر مع هذه الأفواج الساعية إلى
رفدهم ، فلم يكن له منهم كبير حظ . وكان أشد ما يكون نقمة
على جعفر ، صاحب الأمر والنهى . والناظر في هجاء النواصي
لا يشك في أنه كان يحرمه ولا يكافئه على مدحه . وليس أدل
على ذلك من هذه الأبيات التى نروىها . وقد جاءت كأنها
« قصة » :

فأنشدته مدحى البرمكى	أبا الفضل أعنى الفتى جعفرا
فأعجبى ظرفه إذ يقول	مديحك در فهل دررا
فقلت مقال امرئ شاعر	أدافع عنه لى يعذرا
إذا ما مدحت امرءاً من (...)	أليس جزائى أعطى (الخ...)

وهذا هجاء موقور ، ولا سيما البيت الأخير ، وفيه الدلالة
على أنه كان يحرمه . ثم يخرج العيظ عن حد المنطق والصواب
فيرمى جعفرًا بالبخل :

أرى جعفرًا يزدد بخلا ودقه إذا زاده الرحمن فى سعة الرزق

ثم يعم البرامكة فى الهجاء :

هذا زمان القروء فاخضع	وكن سامعاً مطيعاً
كأنهم قد أتى عليهم	ما غل اسماعيل والريما

إذا فقد يئس من البرامكة فحسر بهذا مورداً للمال ، ورجالاً
يهبون من المال ما لا يقل عن هبات الخليفة ، فلو أسعفه الحظ
وتولوا أمره ، لصدقت الأساطير فيما تروى عنه من البذخ والترف .
فهل عوضه آل الربيع الذين صار إليهم ما يهبون عليه ألم هذه
الخسارة ؟ إن الوظائف التي تقلدها الفضل بن الربيع هي ديوان
النفقات عام ١٧٢ هـ ، وهي الوظيفة التي كان يتقلدها حين
قدوم النواصي دار السلام ، ثم الوزارة عام ١٨٩ للهجرة وهو العام
الذي نكب فيه البرامكة . فأين ديوان النفقات من وزارة
البرامكة ، وأين مقدرة الفضل بن الربيع من مقدرة جعفر ورجال
البرامكة وقدرتهم على النفع والضرر والهبات ؟ لم يكن الفضل
ابن الربيع رجل اليوم وإنما هو رجل الغد المرموق .

لم تذكر الروايات الأدبية هبات آل الربيع وعطاياهم لشاعرهم
المقبل عليهم بمدائحهم ، والذي سينقطع إليهم بعد حين . ولكننا
نتكهن أنه لم ينل منهم خيراً ينفع الغلة قبل أن يتولى الفضل
الوزارة ، ويصبح واسع الحول والطول ، قادراً على النفع والضرر .
ولا شك في أن هذه القصيدة التي يسأل فيها العباس بن الفضل
مركباً برذوناً ، أو بغلاً ، أو حماراً ، قيلت قبل وزارة أبيه .

عنيت بمركب البرذون حتى أضر الكيس إغلاء الشعير
 فحلت إلى البغال فأعوزتني فحلت من البغال إلى الحمير
 فأعيتني الحمير فصرت أمشى أزجى الرجل كالرجل الكبير
 ومثلها القصيدة التي يصف فيها حاله ، وأنه بلا نشب قد خفَّ
 ظهره وقل زواره ، وماتت أوطاره ، وأنه :

من نظرت عينه إلى فقد أحاط علماً بما حوت داري
 خبري من البيت كامن وعلى مدرجة الطريق أسراري
 إني انتجعت العباس ممتدحاً وسيلتي جوده وأشعاري
 إني حري بأن يبداني جود يديه يسراً باعسار
 وهي قصيدة شاكية موجهة بالغة في الشكوى والتوجع .
 ولقائل أن يعترض بأن الشاعر يهوّل في وصف حاله ليحتال على
 هذا الفتى فيستل معروفه . وهو اعتراضٌ وجيهٌ . فلا شك أن
 النواصي أراد التهويل ، وبالغ في الشكوى ليصل إلى معروف
 صاحبه ، فلم يعسر ولا ضاقت ذات يده — في يوم — بالقدر
 الذي وصف . ولكن يبقى شيء آخر ، وهو أنه لم يكن قادراً
 على قول هذا لو كانت أعطيات القوم له بالغة ، وإلا فإنهم يعدون
 مثل هذه الشكوى منه كفراناً بالنعمة .

لم تكفه أعطيات آل الربيع ولا استطاعت أن تقوم بأمره .
 فغدا على غيرهم من الأمراء كما أسلفنا ، وارتحل إلى مصر .

وإذا كانت هنالك عطية حرية أن تجزّل وتعظم ، فهي عطية
الخصيب لما يتجشّم لها من مشاق ، ففنى النفس وأسرف في
الأماني والخصيب بعد والٍ على مصر :

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلّا كما بحر .
لا تقمداً بي عن مدى أملى شيئاً فما لكما به عذر
فهل قعد به الخصيب عن مدى أمله ؟

إني لأمل يا خصيب على يدك اليسارة آخر الدهر
وكذاك نعم السوق أنت لمن كسدت عليه تجارة الشعر
فانقع بسبك غلّة نرحت بي عن بلادى وارتهن شكرى

فهل تقع الخصيب غلّته ، وهل قدر على أن يرتهن شكره ؟ ؟
وقبل أن نجيب عن هذا السؤال نقف قليلاً عند هذا الشطر
من الشعر « كسدت عليه تجارة الشعر » لنسائل أنفسنا : أكان
أبو نواس منصفاً في وصف سوق الشعر ببغداد ؟ ؟ والجواب :
نعم ، ولا . نعم ، فما كان سوق شعره رائجاً عند « صيارفة المال »
ببغداد كما كانت الحال عند غيره من الشعراء الذين هم أقولُ
قيمة فيما يعرضون من بضاعة . فليس له من الرشيد حظ ولو دون
حظ النخيري والعتاهي وابن أبي حفصة بعشرات الدرجات .
وباعدت الظروف بينه وبين البرامكة ، وغلبه الخليع على صالح

وعيسى ولدى الرشيد . والجواب : لا ، لأن هؤلاء الأمراء
والعظماء الذين كان يتردد على قصورهم بالمديح ، لم يكن ينصرف
من لدنهم بدون أعطيات ؛ وإلا فكيف كان يستطيع أن
يعيش هذه العيشة الالهية العابثة المترفة بين الخور والقيان
وفي حدائق بغداد ؟ .

قطر بل مربعى ولى بقرى السكرخ مصيف وأمى العنب
ترضى عنى درها وتلحظى بطلها والهجير يلتهب
ونعود إلى حديث الخصيب ونجيب : إنه لم يقدر على أن يرتهن
شكره ، فقد هجاه واتهمه بالبخل والكراسة :

جعل الطعام على بنيه محرما قوتاً وحملته لمن لم يغب
فاذا هم رأوا الرغيف تطربوا طرب الصيام إلى أذان المغرب
وقال فيه وأفحش :

نفس الخصيب جميعه كذب وحديثه الجليسه كرب
تبكى الثياب عليه معولة أن قد يجر ذيوها كلب

يقول ابن منظور إن النواسى ذكر له أن الخصيب لم يهب
له سوى مائة دينار .

وقد أراد النواسى أن يظفر من مصر بالثراء فأقبل على سراة
القوم يمدحهم فلم يحظ منهم . فأقبل على أهل مصر يعمهم

بالهجاء مستثنياً واحداً منهم هو « ابن جوى »

يا أهل مصر لقد غبتم بأجمعكم
أموالكم جمة والبخل عارضها

لما حوى قصب السبق السامع
والنبيل مع جوده فيه التماسيح

هذا هو حديث النواسى من ناحيته « المادية » وما أكثر
ما كرّر مثل هذه الشكوى :

يا عمرو ما للناس قد
أترى السباحة والندى

كلفوا بلا ونسوا نعم
رفعا كما رفع الكرم

وقوله وهو أبين وأفصح في الإعراب عن الشكوى :

ذهب الناس فاستقلوا وصرنا
كلما جئت أبتغى الفضل منهم
وبكوا لى حتى تمنيت أنى
فى أناس تعدهم من عديد

خلفاً فى أراذل الناس
بدرونى قبل السؤال بياس
مفلتٌ عند ذاك رأساً برأس
فاذا فتشوا فليسوا بناس

وأكثر من مثل هذا القول :

إن دام إفلاسى على حاله
وبعت أثوابى وإن بعتهما

هجرت إخوانى وأصحابى
بقيت بين الدار والباب

وقوله :

الحمد لله ألم تنهى
فامنع عن النفس هواها فقد

تجربة الناس عن الناس
أذلى للناس إفلاسى

وهى أبياتٌ تعين الباحث على معرفة حال النواسى المادية

كثيراً . فكلمة الإفلاس تتردد كثيراً فى شكواه . والإفلاس

لا يعنى حالة موجهة مطردة ، وإنما يعنى حالتين — حالة يسار أو شبهها كان بها الفلاس ، ثم الحال التى صار إليها بعد أن فقد اليسار . وأفلس من معناها فى اللغة أصبحت دراهم الرجل فلوساً . وهذه هى الحال مع أبى نواس ، فيا شد ما أصبحت دراهمه فلوساً ، فهو يشرب الخمر ويلهو ويغدو على القيان والغلمان . وهى أحوال ترضى معها الدنانير وتدع الدراهم بمرتبة دون مرتبة الفلوس . وأبو نواس يعلم أن الخمر هى التى تصنع به ذلك ، تقلل فضله عند القوم السَّراة فيطفقون هباته وينفق فى سبيلها هذه الهبات .

والراح أهواها وإن رزأت بلغ المعاش وفالت فضلى
وهناك سبلٌ أخرى غيرها للأفلاس . فقد كان الرجل مسئولاً
عن ذوى رحم — وهذه طريقة ثانية للانفاق . وهو بعد زعيم
طريقة فى الأدب والحياة ، له رفاقه ومريدوه ، يقبلون عليه ليغدوا
معه على حانات بغداد ، وحدائق القفص إن لم يكن ذهابه
إلى الأخيرة فى ركاب أمير . وهؤلاء الرفاق والمريدون يقبلون
عليه ما وسعهم يساره فإن أفلس فقد جذوا حبله :

صل من صفت لك فى الدنيا مودنه ولا تصل بإخاء حبل جذاذ
يمود بالله إن أصبحت ذا عدم وليس منك إذا تثرى بعمتاذ

وهى طريقةٌ ثالثةٌ للانفاق لعلها أكثر من غيرها
 النهاماً المال ، وتضييعاً له . يضاف إلى هذه خلق أبي نواس
 السمع الذى يرى فى المكاس ضراعة ، وفى مساومة الخمار عاراً .
 أعاذل ما فرطت فى جنب لذة ولا قلت للخمار كيف تبسّم
 أسامحه إن المكاس ضراعة ويرحل عرضى منه وهو جميع
 ويأتى من وراء هذا كلّ مذهب فى الحياة وليس من شأنه
 أن يعين على ثراء .

فاشرب وجد بالذى تحوى يداك لها لا تحذر اليوم شيئاً خوف فقر غد
 فعاش عمره يراوحه اليسار ، ويعاديه بعض الحين الإفلاس .
 ومات ولم يخلف شيئاً .

معيشة ومذهب

لم يك تردد النواسى على هؤلاء العظماء والوزراء وأكابر
 الناس ببغداد ، وحبّه فى أن يحسب على بعضهم ويعد
 من مواليتهم إلا لأنهم السبب الذى يعينه على العيش . فهو محتاج
 إليهم لهذا . ولو أضعفته المقادير ، واستقلت ثروته بلذته
 كما يقول لما غدا على باب أحد منهم ، ولا أثر عليهم وعلى أبوابهم ،

أبواب الخانات يقرعها وقد ترفعت الثريا ، وحياة يقضيها
كما يشتهي « صريع غزلان وكاسات » في حدائق القفص ،
وقرى الكرخ . فالتردد عليهم ومدحهم ضرورة قسرتة عليها الأيام
وقد كانت الخمر كثيرة وميسورة ببغداد ، يشربها جل
طبقة النواصي ويصفونها ويصورون كلهم بها . ولكنه أربى
عليهم في هذا الوصف والتصوير . وظنى أنه أربى عليهم بشربها
فشربنا شرب قوم عطشوا من عهد عاد

وكان عشق الغلمان معروفا لا يكاد يكون مستنكرا ، ولكنه
زاد على من تلا ولحق . وكان العصر سوق جوار وإماء . فطربت
لهن النفوس ، وتغزل بهن الشعراء ، وكاف بهن النواصي كلفا
شديدا . ولم يقصر عن غيره بل ربما زاد عليهم . أخذ بهذه
الحياة في البصرة فتى لم يطر شاربه ثم تفرغ لهذه الحياة ببغداد
وقد رضى بها عن كل مطمح .

رضيت من الدنيا بكأس وشادن تخير في تفصيله فطن الفكر

فإذا ساعفته الدراهم والدنانير سار إلى هذه الخانات المبتوثة
في أطراف العاصمة ، أو في القرى المجاورة ، والتي يقوم عليها كما
يقول النواصي دهاقين من الجوس أو اليهود أو اليهوديات ، أو

من أصحاب الملل الأخرى التى تبيح لمعتنقها شرب الخمر والمتاجرة
بها ، وكان أبو نواس ومن على شاكلته يطرقون أبواب هؤلاء
الناس فيفتحون لهم ، بعد أخذ ورد قليل ، ليتعرفوا وجوه
القوم ، ويظهر من ذلك أن بيع الخمر لم يكن ليتم المسلمين إلا
باحتراس قليل . لأن الحد فيها وإن تغوضى عنه وأهمل ، لم يكن
قد أبطال . فكان أصحاب الخمرات يتوجسون من السعيات .

ففرع من إدلاجنا بعد هجمة وليس سوى ذى الكبرياء رقيب
تناوم خوفاً أن تكون سعاية وعاروده بعد الرقاد وجيب

ويتوجسون أيضاً من أن يكون هؤلاء المدجلون من
الذين تكثر عربدتهم ويماكسون وقد لا يدفعون . ولكن
هؤلاء الدهاقين يعرفون صاحبنا حتى كلابهم تألفه فلا تهر عليه :
إلى بيت حان لا تهر كلابه على ولا ينكرن طول ثوائى

ويعرفون جماعته فهو لا يصحب إلا السراة الأمائل :

وأصطحب القوم السراة كأنهم نجوم تراءت من مطالعها الزهر

وفتية كمصاييح الدجى غرر شم الأنوف من الصيد المصاليث
صالوا على الدهر باللهو الذى وصلوا فليس حبلهم منه بمبتوت
نادمتهم قرقف الإسفنت صافية مشمولة سييت من بيت تكريت

ونديمى كل خرق زانه عتق نبحاره

ويعرفون منه غير ندمانه ورفاقه ، سرفه وعدم مما كسته وأنه

يدفع فوق ما يطلب منه ، وتلك سجية ترغهم على الترحيب به ،
 وإظهار البشاشة والإعزاز له . وخلة أخرى وهي كرهه للعريضة ،
 وأنه لا يطيقها في مجلسه حتى لكانه يتفقد رفاقه قبل الشرب
 هل فيهم عرييد ، ثم يقول لهم قبل البدء في الشرب : إن هذه
 الكأس مشغلة بلذاتها ، فتركوا الحديث فيما عداها لئلا يؤدي
 الأمر إلى ملاحاة :

في الكأس مشغلة وفي لذاتها فاجعل حديثك كله في الكأس
 صفو التعاشر في مجانبه الأذى وعلى اللبيب تحير الجلاس
 ثم يُريهم أن الأخلاق السائغة ، وتجنب المشاكسة والعريضة
 صفات يدل بها صاحبها ويفتخر :

لمثل من الفتيان حلت أخى الخمر وطابت له اللذات واسترخى السكر
 إذا كان سكرى لا يكدر مجلسي ولا يعتري فيه خصام ولا هجر
 وغريب أن ينشد هذا الخلق « الابتعاد عن الخنا » :

خلتاً شر تشينان الفتى حيثما حل ، الخنا والعريضة
 ثم يردد هذا مرة ثانية :

ندامى طول الدهر خرس عن الخنا وعمى عن العوراء نزه عن الكبر
 وهو يفرق فرقاً شديداً من أن يصيره الشراب هُزأة للناس :

إني بعيني أن أراك جنية بعد العشاء تقاد بالأسطوان
 وأراك قدام المغار كبومة عمياء وسط جماعة الغربان

وإذا نزل الربيع السهل ، وأورقت البساتين ، واخضرت
الكروم سار إليها يتخير موضعاً لشرايه :

على خزامها وحوذاتها ومشكل من حلال الزهر
يا حبذا الصبغة في العمر وحبذا نيسان من شهر

وهو يشربها في غير الربيع وغير الشتاء ، في كل فصل وفي
كل حين . ولعله إذ يذهب إلى الحدائق المونقة ، والسهول
الممرعة نهاراً ، لا ينسى أن يسير إلى الحانات ليلاً ، فإن له ولعاً
في الشرب في سواده ، إذ هو أعون على الملاحى . وإذا أعوزه
النديم ولم يستطع السير إلى هذه الحانات ، والغدو إلى الحدائق
المونقات ، لسبب من الأسباب ، شربها وحده . ونادراً ما كان
يفعل فهو لهذا كاره :

نادمتها إذ لم أجد مسعداً أرضاه أن يشركنى فيها
شربتها صرفاً على وجهها فكنت ساقياً وحاسيها

ولا بدّ مع الكؤوس في هذه المجالس من نقر على العود ،
ذلك أقدح للصفاء وأتم للسرور :

فاستنطق العود قد طال السكوت به لن ينطق اللهو حتى ينطق العود

وهو يرى ذلك شيئاً لازماً :

ولا تشرب بلا طرب ولهو فإن الخيل تشرب بالصفير

أمضى النواصي عمره أو أكثره في هذه المجالس وهو القائل :

كفيت الصبا من لا يهش إلى الصبا	وضيعت منه ما أضاع مضيع
أعادل ما فرطت في جنب لذة	ولا قلت للخمار كيف تبيع
أعادل خلبي أرو شبيبتي	فإن بان لي رشد فسوف أربيع

فيودهره مفتون بالخمر ، وما يتبع الخمر من لهو . ولم يك
هو وحده فكثيراً أدركتهم هذه الفتنة . وانظر إليه يصف بغداد
غباً شهر من أشهر الصيام :

قلبس يسمع إلا صوت غانية	بجهددة جدت عهداً لمقترح
والخمر قد برزت في ثوب زينتها	فالناس ما بين مخمور ومصطحح

ولا ريب في أن الناس لم يكونوا كلهم كما وصف ما بين
مخمور ومصطحح ، ولكن أكثر الناس الذين عرفهم كانوا كذلك .
وهم الطبقة العليا في سلم الاجتماع .

ولم كل هذا ؟ أو بالحرى لم استوفى هذا العصر كل هذه
المناعم والمباهج بين العصور ؟ ولم شدت أعصاب النواصي
وركزت على هذا النحو ؟ وهي أسئلة لا تلقى جواباً ، لأنه في
السؤال الأول يحتاج إلى الإطالة ، والثاني هو للمجهول والغيب .
وقد ألح الناس على النواصي في هذه الأسئلة ، فأجابهم بأجوبة
مختلفة متفرقة ، ولم يصدق إلا مرة .

قال إنه يشرب الخمر ليلهو بها عن همومه :

صفراء تنسيك الهموم إذا بدت وتغير قلبك حلة السراء
وخال أن الناس خليقون أن يصدقوه فردد هذا العذر مرات :
أديرا على الكأس تنكشف البلوى وتلتذ عيني طيب رائحة الدنيا
لست أرى لذة ولا فرحا ولا نجاحا حتى أرى القدحا
نعم سلاح الفتى المدام إذا ساوره الهم أو به جمعا
وهو غير مُطالب بأن يبوح للناس بما آتى همومه ، ولكنه يذكر
بعضها أحيانا ، فإذا هي همومٌ على أحبة لم يقوا ، وشوادن لم
يسعفوا ، وآلافٍ نرحوا .

دعت الهموم إلى شفاف فؤادي وحتت جوانب مقلتي ورقادي
ورق بتفجعة تنوح أليفها غلس الدجنة في ذرا أعواد
واقد أزجسى الهم حين ينوبى والشوق يقدح في الحشا بزناد
بمدامة ورث الزمان لبابها عن ذى الأوائل من أكابر عاد

وأجاب ثانية بأنه يشربها لينعم بها شبابه :

نعم شبابك بالخمر العتيق ولا تشرب كما يشرب الأغمار من ماذى

وأجاب ثالثة بأنه يشربها لأنه يدرك شيئا لم يدركه الناس ،
وهو أن شبابه إلى تصرم وانتهاء ، وأيامه إلى نفاد وانقضاء ،
ونظره إلى الناس احتقارًا وازدراء :

وهان على الناس فيما أربده بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر
رأيت الليالي مرصداً لمـدتي فبادرت لذاتي بمبادرة الدهر

ويقول إنه يشربها ليستنصف بها الأيام من أحداثها :

قائف الوقار عن المحجون بقهوة حمراء خالط لونها أقدار
فاستنصف الأيام من أحداثها فلطالما لعبت بك الأقدار

فتتمنى لو دانت لصاحبك الأقدار وأسعفته الأيام ليقلم عن
هذه العادة وليترك هذه الحمر التي يلهج بذكرها ويحسوها في كل
حين . ولكنك تعرف أن كل ما ذكر ليس إلا أعذاراً وقد
يكون أكثرها مختلفاً ليسوع بها شربه إياها ، إذ تراه يغدو
على شربها ، وقد انتفت حالة الهم ، ومعاندة الأيام ، وواتاه
الدهر بما يشتهي ، ودارت أيامه بالسعود ، وإذا صاحبك بهذه
الحال لا يرضى بها تأتية بالكوب الصغير بل يطلبها بالكبير :

إسقى إن سقيتني بالكبير من لذيذ الشراب لا بالصغير
قد تدانت لنا الأمور كما نهـوى وذات لنا رقاب الدهور

وهو شاربها في حالتي يسره وإعساره :

نخمرة أنت لها راج في حالتي يسر وإعسار
وتعلم أن الأمر جد إذ يقول :

إنما العيش في مباكرة الخمر وشكر يدوم في كل حال

على أنه يكاد يجيبك بالصدق إذ تكثر عليه اللوم :

لا عيش إلا المدام أشربها مقتبعا تارة ومصطفا
يا صاح لا أترك المدام ولا أقبل في الحب قول من نصحا

كاد يقارب الصدق ، ولكنه يصدق الصدق كله إذ يقول لك
شارحاً السبب الذي يجعله يكلف بهذا الشراب ويبذل فيه
ماله وجاهه .

ألا لا تلمني في العفار جليسي ولا تلحن في شربها بعبوس
لقد بسط الرحمن منى مودة إليها ومن قوم لدى جلوس
نعشها قلبي فبغض عشقها إلى من الأموال كل نفيس

هذا هو الصدق وقد دار عليه النواصي كثيراً . فهو يشربها
لأنه أدمن تعاطيها بعد أن خلق بمزاج يهش إليها . وقد يتوهم
بعض الكتّاب الكرام أن النواصي يبطن وراء ذلك هماً وحزناً
دقيقاً^(١) يُغشيه بستار من الاستخفاف « واللا أبا اليه » .
ويشرب الخمر لينسى هذه الهموم والأحزان الدفينة ، كما يصنع
الخيام ، ويجيء هذا الوهم من أعذار النواصي التي أسلفنا القول
عنها ، والتي منها الهم . وليس من المستبعد أن يلتمّ به طائف من

(١) من هؤلاء الأستاذ الفاضل أنيس القديسي — في كتاب أمراء
الشعر العباسي — فقد جعل من النواصي شاعراً مفرطاً في الفشائم .

هم فيشرب كأساً لينساه . بل لا بُدَّ من ذلك . وأية حياة تخلو من هموم وأشجان — ولا سيما حياة الشعراء ذوى الحس المرهف — ولكن تقدير مذاهبهم لا يكون بالنظر إلى هذه الحالات الطارئة ، وإنما هو بالنظر إلى حياتهم كسلسلة تامة ، بصرف النظر عن بعض حلقات لا بُدَّ أن تجيء بها لأنها حياة إنسان قبل كل شيء . وفرق ما بين خمر النواسى والخيام . إن الخيام يشربها وأذنه للغيب تتسمع أصداء المجهول علّها تتلقف أجوبة عن الأسئلة الحائرة عن العلة والمعلول ، وما كان وسيكون . وقلبه مشغول بالكون وامتداده ، والأبد ونهايته . أمّا النواسى فأذنه للنغم ، وعينه على الوجه الصبيح ، والكشبان المهيّلة ، وقلبه مشغول بما كان وسيكون — ولكن من صدِّ ونفار ، وقضاء لبانات وأوطار . ولا شيء خلاف هذا

فالنواسى هو السرور ومجالسه هي التى يقول فيها :

ومجلس ماله شبيه حل به الحسن والجمال
يمطر فيه السرور سحاً بدعة مالها انتقال

وهو الذى يقابل الشعراء المفكرين المتشائمين فى الحياة ، ويجيء مضاداً لهم . ولم يرتفع النواسى فى ملذاته عن رغائب الحسن

القريبة التناول . ولم يشغل باله وخاطره في غيرها ، وفي غير الحديث عنها . حتى الطبيعة إذا صار إلى وصفها لم يستطع أن يصف منها إلا الجانب الذي يراه طالب هذه اللذائذ . ففيها ورد وريحان ، وفيها ماء وأغصان . وهذا مما يعين على الشراب فكان هذه الطبيعة حانة لرواد الحانات ، بل هي ليست شيئاً . وخير من وصفها وصف الخمر .

وليس من الغرابة بعد هذا أن تمر بديوانه فلا ترى فيه وصفاً للنسيم المنعش الذي تغنى به الشعراء . ويجيء مع هذا طبيعة عشقه . فهو العشق الذي ينظر فيه إلى جانب اللذة والمتاع ، ويحرص فيه على أن ينفي منه كل ما يبعث حزناً أو همماً ، فلم يعرف عنه وهو المفتون بالجمال أنه عشق وتوله بالعشق . وعشقه « جنان » مع أن أهل عصره كانوا يشكون في صدقه ، قد جاء في أوائل الصبا ، وساعد على تلهبه وقدة الشباب ثم همد سريعاً وانطفأ .

وكذلك الشأن في حديث هذا الشاعر مع أصدقائه وعُشرائه ، فهو معهم في مثل أخلاق النديم ، يلقاهم فيسمعهم ما يحبون أن يسمعوه . فهو يقول للخليع إذ يلقاه : « أنت أشعر أهل زمانك

في الغزل إذ تقول « . و يروى أبياتاً من شعره ^(١) و إذا تناشدوا
وأنشد العتاهي قال : هذا المظمع الممتنع . ولكن إذ يتفرق هؤلاء
الخلطاء والعشراء فليس أمره إلى كبيرهم :

لا تبك بعد تفرق الخلطاء واكسر بمائك سورة الصمباء
كذاك إني إذا رزئت أخاً فليس بيني وبينه سبب
لا تحزن لفرقة الاخوات واقبر الموم بمذهب الأحران
وعله لم يرد عدم الوفاء . ولكن طبعه أن يُتقى من درب
حياته أشواك الموم والأحران .

وأن يأتي حديث الزهد من هذا المزاج وهذه الطبيعة وليس
في هذا تناقض ، وإن جاء النغم ناشراً من عدم المران عليه وسماعه
من هذا الشاعر ، فالنواصي شاعرٌ تتحكم به الأعصاب كما أسلفنا ،
وليس هو برجل فكر أو مذهب من مذاهبه — أي الفكر —
يُطيل عنده وقفته ، ويعمل فيه منطقته .

ومن الظلم أن نحمل أعصاب النواصي ونطالبها بفلسفة ، فيما
عدا الحديث العابت في الحمر واللهم وما يتبعهما من مجانة ، إذ كنا
لا نستطيع أن نقول للنواصي في معرضٍ من معارض الفكر أصبت

أو أخطأت . ولا هو يطلب ذلك منا . ولكنه يطلب ويلجُ في الطلب . ونستطيع أن نتول له أجدت في هذا الوصف وأبدعت في الشعر وأطربت . وبذلك نريح أنفسنا من عناء لا طائل تحته في البحث في ديوانه عن أبيات تستهدف غايات فلسفية ، أو هي من أبيات الحكمة ، ثم نتخذها دليلاً على أن النواصي كانت له فلسفة وكان حكيماً . . .

شاعرٌ جديد

تطوّر الشعر ببغداد وفي ظل الترف ، ورق في معناه ومبناه عما كان عليه في الشام ، وفي أواخر الدولة الأموية . فلا سبيل إلى مقارنة شعر النواصي والخليع والعتاهي ورفاقهم بشعر الأخطل وجريز . إن شعر الدولة الأموية يلتفت إلى وراء ، وهم أصحابه أن يقاربوا الصنعة الجاهلية . أما شعراء الدولة العباسية فجهدهم أن لا يأتوا بالصنعة الجاهلية وطرائق الجاهليين .

وحينما قدم النواصي بغداد لم يكن فيها من يتبع الطريقة « التقليدية » من وقوف على الأطلال ومخاطبة الدمن والنياق . وقد جانب هذا وغايره الطبقة التي سبقت طبقته ، وهي طبقة

بشار ورفاقه . فكان النواسى قادراً على سلوك الطريق الجديدة الممهدة دون ضوضاء أو شغب . ولكنه أثر أن يسلكها بضوضاء وشغب ، وآثر أن يسلك الجانب الوعر الذى قلما كان يرتاده أحد من الشعراء ، وإذا ما ارتادوه فهم يحسبون الحساب كله لقالة الناس وآرائهم . أما الطريق الممهدة فهي وصف الواقع ، وتصوير الحياة التى يعيشها الشاعر . وأما الجانب الوعر فهو وصف الخمر والملهى والدعارة . ووصف الواقع أرادہ النواسى للصدق . أما وصف الخمر وما يتبعها فقد أرادہ للصدق أيضاً ، ومع الصدق ميل غير قليل إلى حب الشهرة .

إن شهرة النواسى تستمد من قوة شعره ، وبراعة وصفه وتصويره ؛ وتستمد أيضاً من هذه السيرة الداعرة . بل هى مدينة لهذه السيرة أكثر من دينها لقوة الشعر . وما كان ليخفى على النواسى — وهو الذكى — أية شهرة يمدھا له سلوكه هذا إلى الجانب الذى يتهيبه الشعراء « فقد كان أسيرَ الشعراء شعراً » كما يذكر ابن رشيق فى العمدة .

ويلوح لقارىء ديوانه أنه أطال البحث عن هذا المذهب الجديد ، وأنه أخذ فى المذهب القديم ولو قليلاً ، فهو يقول :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ثم يقول في ختام هذه القصيدة بعد أن يصف الخمر :

وإذا نعت الشيء متبعاً لم تخل عن غاط وعن وهم

وهي أعذار عن وصف الخمر ، وتدلّيل منطقي على أن الشاعر

أقدر على وصف ما يراه من وصف الشيء الذي لم يره .

وفي الشطر الأول من البيت السالف بذارة للقدمات بأن نعت

الطلول بلاغة ، وهي بلاغة اختص بها الأقدمون .

ويذكرون أنه عرض على بشار قصيدته في نعت الخمر ، وفي

هذا دليل على نظمه إياها أول مجيئه إلى بغداد ، وإن كنت

أشك في أنه أدرك بشاراً فقد توفي عام ١٦٨ هـ وفيها يقول :

مالي بدار خات من أهلها شغل ولا شجاني لها شخص ولا طال

ولا قطعت على حرف مذكرة في مرفقيها إذا استعرضها قتل

بيداء مقفرة يوماً فأنعتها ولا سرى بي فأحكيه بها جمل

لا الحزن مني برأى العين أعرفه وليس يعرفني سهل ولا جبل

لا أنعت الروض إلا ما رأيت به قصرأ منيفاً عليه النخل مشتمل

ولا نعرف أطالت مدة بحثه عن مذهبه الجديد في النظم ،

ومشاورته لنفسه في النظم فيه ، ومخالفة طريقة الأقدمين . ولكننا

نرجح أنه أخذ فيه ببغداد .

وقد نظم النواسى الشعر بطريقتة الأقدمين فهو يقول فى قصيدة:

إلى الله أشكر حب من جل نيله	على كلام من وراء جدار
صبرت لها حتى إذا ما تفجرت	بذور الهوى حولى وكان خمارى
جعلت ردائى السيف ثم طرقتها	مفاوض أهوال خلبع عذار
فكدنا ولما غير أن شفاها	نعاطت خليطى سكر وعقار
وودعتها صبحا ولم أنس صدها	وقد بادلتنى خاتما بسوار

وهى قصيدة عامرة ، ولكن ليس فيها شىء من روح النواسى ، وإنما هو ينظر فيها إلى عمر بن أبى ربيعة وجميل وهذه الطبقة . ومتى كان النواسى يشتمل على السيف وهو ذاهب إلى لقاء من أحب ليبادلها سواراً بخاتم أو خاتماً بسوار ؟ وهل تتسع بغداد والبصرة أو تتطلب الذهاب وهو مشتمل على السيف للقاء الأحباب ؟ .

انتهى من هذه المرحلة التى وقف عليها قليلا . وبعد أن كان يرى أن صفة الطلول بلاغة الأقدمين ، أخذ يهاجم هذه البلاغة ويشنع عليها وعلى أصحابها بهوى ، ويشايعهم برأى . وأخذ يدلل على أن وصف الخمر خير من وصف الطلول والنوح عليها . ومن لم يقنعه التذليل ركبه بالسخرية ، ودعاه إلى الإغراق فى وصف الخمر يفعل هذا ومعه ميل إلى حب

الشهرة . وتفصيل ذلك أن بغداد كان يتقلب عليها من الشعراء في الفترة التي عاشها النواصي ثلاثة شعراء كبار : أبو العتاهية ، والحسين بن الضحاك ، وأبان اللاحقي ، أما أبو العتاهية فقد كان غمر البديهة . ولعله أقدر من عرفت العرب من شعرائها على الارتجال . وقد كان يجيد شعر الزهد والمديح ، وأما اللاحقي فقد انقطع للبرامكة ، ونظم كليلة ودمنة شعراً ، ومعنى انقطاعه للبرامكة إجادته للمديح أيضاً . وأما الضحاك فقد كان يجيد في أكثر فنون الشعر ولا سيما الحمز والغزل . ولكنها إجابة ليست بالمتقطعة . وكان النواصي يعلم أنه لا يجيد المديح إجابة العتاهي — على الأخص — . وأما الغزل فما نظمه كان يجهل أن شعره فيه تنقصه عواطف المحبين حقاً . وقد جرب نفسه في البصرة فلم يأت منه بكبير طائل ، وهو القائل في جنان :

وجه جنان رياض دنيائى ترنم فيه ظباء أهوائى

تصطادها أكلب الصدود إذا يدعو إليها الهوى بايماء

أهو وجه محبوب ، أم ساحة صيد . فلم يبق إلا وصف الحمز والإغراق بهذا الوصف حتى يعرف بأنه شاعرها ، وكان له ذلك . وكان يرى لنفسه الحق وقد انقطع إليها أن ينهب كل معنى يخاله

طريفاً . فهو ينهب معاني الوليد . وإذا أعجبه معنى من معاني
الخليع ، ادعاه لنفسه ، وأخذ منه قوة وعذوة . ثم ينظمه بشعرٍ
سائع قريب إلى الأنفس فيعرف أنه صاحبه . سمعه مرة ينشد :

حتى إذا أسندت في البيت واحتضرت عند الصبح بيسامين أكفاه
فضت خواتمها في نعت واصفوها عن مثل رقراقة في جفن مرهء

قال الحسين فصُيِّقَ صعقة أفرعتني ثم قال : « أحسنت .

هذا معنى كان فكري لا بد أن ينتهي إليه وسترى لمن يروى
ألى أم لك » فأخذ البيتين بجملةتهما . وأنشده مرةً هذا البيت :

تماله نصب كائسه قرأ بكرع في بعض أنجم المالك
فأنشده النواصي بعد أيام لنفسه :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا
فقال له الخليع : « هذه مُصَالبة يا أبا علي » فكان جوابه :

« لا يروى لك في الحمر معنى جيد وأنا حي » .

وكان النواصي يقول له بعد أن يُطرى شعره في الغزل ويرد
عليه الخليع : وأنت ألا تفارق مذهبك في الحمر ؟ : « لا والله
وبذلك فضلتك وفضلت الناس جميعاً » .

ويروى « الأغاني » أن أبا العتاهية طلب إليه أن يكفَّ عن قول
الشعر في باب الزهد ، كأنما هذا الباب حرم على غيره ، وكأنما

تقاسموا - ضمناً - أبواب الشعر ، فمن صار إلى غير بابيه فقد
 بغى واعتدى . وقد روعى في هذا التقسيم حال الطبع والمزاج .
 وجدّ النواسى في مذهبه الهازل ، وأخرجه الجدُّ عن حدود
 الاعتدال ، فهو زارٍ على كل ما لا يتصل بمذهبه الجديد ،
 وطريقة الشعر القديم متصلة أوثق اتصال بحياة العرب وعيشهم
 في البادية . ولهذا فهو ساخطٌ على هذه الحياة وعلى هذه البادية ،
 ولا يرى أنها خليفةٌ بغير هذا السخط والازدراء . وهو كلفٌ
 بمذهبه الجديد في وصف الحياة التي يحياها ، حياة بغداد ، ووصف
 الحمر ، كلفٌ بهذه الحياة وهذه الحمر ، مُدْلٌ حتى بمساوئهما ،
 إن أحوج الأمر ، وشدّ ما كان يحوج . والتدليل على هذا من
 شعر النواسى يقضى بنسخ معظم ديوانه لأن أكثر شعره يجرى
 على هذا السنن .

ومن هنا كانت تجبىء سخريته مؤلمة قاسية ، لأنها للجدِّ
 لا للفكاهة . فأنت تضحك منها ولكذك تشعر أن الشاعر لم
 يسقها لهذا ، وإنما ساقها للإيلام . فقد كانت ثقيلة على الذين
 يركبهم بها « وهم العرب » ، والمحافظون منهم على القديم ،
 والمؤثرون له بوجه خاص ، وخذ مثلاً منها ، فهو يقول :

لا تنس لي يوم العروبة وقفه تودى بصاحبها بغير فساد
ويهلك هذا المقطع ، ويشوقك إلى الجدل الذي وراءه ،
ولكن أى عبثٍ وأى سخرية إذ يقول :

يوما شربت وأنت في قطربل خراً تفوق إرادة المرتاد

ويقول في قصيدة يصف النذل الذي جاءهم بالخير :

جاءها مستمداً « كالحارث بن عباد »

قد جلل الكرم منها كنزاع في قتاد

فسل منها بزالا فسال مثل الفصاد

وهي صورة عابثة ومضحكة ، ولكنها على عبثها مؤلمة ،

فما كان فريق من العرب ليرتاح إليها ، ومثلها قوله يخاطب الخير :

فقد ظفرت بصفر العيش غائمة كغنم داود من أسلاب جلوت

وقوله وهو النهاية في توقيير « الخمار » :

قالت كذبت على طيفي فقلت لها إذن فعاديت يا مكنون خمارا

وأكثر ما تجيء هذه السخرية اللاذعة في سبيل تأييد

مذهبه الجديد ، مثل قوله الذي يزرى به في الوقوف والواقفين

على الأطلال :

قل لمن يبكي على رسم درس واقفا ما ضر لو كان جالس

أو قوله :

سقباً لغير الحيام والظالم وغير عيرانة من الإبل

عجبت من نعتها وناعتها وأى نعت يكون في الجمل

ابو نواس

ولا مرأ في أن القدامى كانوا يألمون من هذه الأبيات ،
ويذكرون عند قراءتهم الشطر الأخير « وأى نعت يكون في
الجمال » الآية الكريمة « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت »
فيزيد ألمهم . وأية سخرية في هذا الصورة التي جاء بها للتعريض
بالشعر العف والحب العذرى :

وقصرية أبصرتها فهويتها هوى عروفة العذرى والعاشق الهندي
فلما تئامدى هجرها قلت واصلى فقالت بهذا الوجه ترجو الهوى عندي
ويكثر في لدعاته مثل هذا التضمين الساخر الذي يخرج عن
معناه الذي وضع له :

فلما أن وضعت عليه رحلى تغنى منشداً شعر امتداح
ألستم خير من ركب المطايا وأندى السالين بطون راح
وهي سُخرية ما كنا لننجىء بها لولا أن البيت الأخير تذكرة
العرب « كأمدح بيت قيل » . وكل فكاهاته تجيء في هذه
المعارض كاوية وهي للإيلام أولاً . وله بعض الفكاهات التي
تضحك ولا تؤلم ولكنها قليلة وأكثرها مما صور وهو في البصرة .
وليس المعول في تقدير قيم الشعراء والأدباء على سلوك طريقة
جديدة أو قديمة ، وإنما هو على مقدار الإبداع في هذه الطريقة .
فأين كانت منزلة النواسى بين شعراء عصره ؟

لقد كانت منزلة رفيعة ، وشهرة ضخمة ، وجماعة عصره لا يفضلون عليه إلا شاعراً واحداً هو أبو العتاهية . فهم يقولون إن النواسي أشعر أهل زمانه ، ولكن العتاهي أشعر الإنس والجن . وكان النواسي يقرُّ له بهذه المنزلة ، فهو يقول على ما يروى أبو الفرج : « ما رأيت له - أي العتاهي - إلا خلتنى أرضاً وأنه سماء » .

ويقول الجاحظ : « ما رأيت أحداً أعلم باللغة من أبي نواس ، ولا أفصح لهجة مع حلاوةٍ ومجانبة استكراه » ويقول النظام : « هذا الذي جمع له الكلام فاختر أحسنه » .

وأبو العتاهية - أمير الشعر في هذه الفترة - « كان يقدمه ^(١) » ويقول الجرجاني في الوساطة : إنه و بشاراً أشعر المولدين . ويروى ابن رشيقي في العمدة عن الجاحظ مثل قول الجرجاني : « ما نعرف شاعراً مولداً هو أشعر من بشار وأبي نواس » .

ونسوق هذه الأقوال وهي نتف قليلة من أقوال كثيرة لنبيين المنزلة التي بلغها النواسي في نفوس معاصريه ، وهي منزلة رفيعة بلغها بحق وعن جدارة بهذا الشعر الذي بين أيدينا ،

والذى على فرط اعتنائه بتنقيته ، لا يخلو من ركافة — بعض
الحين — أشار إليها صاحب الوساطة ، ولكنها من القلة بحيث
لا تفسد هذه المجموعة والثروة الضخمة من شعره الذى هو مفخرة
من مفاخر الشعر العربى وإن آلم معاصريه بزرايته بعاداتهم
وتقاليدهم شأن كل جمود .

وقد كان من جنائات مذهبه عليه أن رماه العرب بالتعصب
عليهم ، واتهموه بالشعوبية . ورماه الناس لمذهبه ولسُخريته
بالزندقة . ولكن هذه الشعوبية والزندقة ، واتهامه بهما بحق ،
أو بغير حق ، لم ترزاه بعظمته الشعرية .

عصبية

بين الفرس والعرب

الذائع المشهور عن النواسى أنه يتعاجم فى شعره ، ويسخر
بالعرب ، ويفخر بفارس ، ويسوق من يقول بذلك شواهد
من شعره منها قوله :

فاسقنيها وغن سو	نأ لك الخير أعجا
ليس فى نعت دمنة	لا ، ولا زجر أشاما

وقصيدته التي يقول فيها :

مسارحها الغربي من نهر مرمر ففطربل فالصالحية فالعفر
تراث أنوشروان كسرى ولم تكن مواريث ما أبتت تميم ولا بكر
قصرت بها ليلى وليلى ابن حرة له حسب زاك وليس له وفر

ولم يكتف ابن منظور عن قصيدٍ أو غير قصد بهذه الأبيات التي تدلُّ على تفضيل الشاعر لمواريث كسرى على مواريث العرب ، بل أبدل « تراث أنوشروان » كما جاءت بنسخ ديوانه ب « تراث أبي ساسان » . فظهر النواصي أعجمياً يفخر بالفرس وأنه من أبنائهم

وروى ابن منظور في هذا المعرض أبياته المشهورة :

تدار علينا الكائن في عسجدية حبثها بأنواع التصاوير فارس
فرارتها كسرى وفي جنباتها مهى تدرجها بالفسي الفوارس

وتكمل الصورة ، وتظهر عصبية الفارسية على أشدها إذ يروون أهاجيه للعرب ، وتشنيعه على عيشهم . وأبياته في ذلك كثيرة ، بل هي بعض المرات قصائد أنشئت لهجاء الأعراب والأعرابيات . وقد هجا العرب قبيلة قبيلة حتى قيل إنه كان يتنقل بنسبه في قبائلها ليسهل عليه هجاؤها . ثم هجا الأعراب جملة واحدة :

دع الرسم الذي دثرا يقاسى الريح والمطرا
 وكن رجلا أضاع العلم في اللذات والخطرا
 ألم تر ما بنى كسرى وسابور لمن غيرا
 منازة بين دجلة والفرات أخصها الشجرا
 لأرض باعد الرحمن عنها الطلح والعشرا
 ولم تجعل مصابدها يرايعاً ولا وحرا
 ولكن حور غزلات تراعى بالملا البفرا
 فذاك العيش لا سيدا بقفرتها ولا وبرا
 بعازب حرة يلقى بها العصفور منحجرا
 إذا ما كنت بالأشياء في الأعراب معتبرا
 فانك أيما رجل وردت فلم تجد صدرا
 ومن عجب لعشقمهم الجفافة والجفرا
 تعد الشيخ والفيصو م والفقهاء والسمر
 جنى الأس والنسريــــن والسوسان إن زهرا

واتخذ هذا ديدناً له ، فهو يستفتح كثيراً من قصائده بمثل

هذا المعنى :

يا أيها العاذل دع ملحاتي	والوصف للمومة والفلاة
دارسة وغير دراسات	وانف هموم النفس بالذات
ولاقيها بأصدق النيات	حتى تلاقى رب شاصيات
محتطبات لا مخفرات	بنات كسرى خير ما بنات

ومثل قوله المتداول :

عاج الشقي على رسم يسائله وعجت أسأل عن خماره البلد

يبكى على ظل الماضين من أسد لا در درك قل لى من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ولفهما ليس الأعراب عند الله من أحد
إلى غير هذا - وهو كثير - وكله يصلح للاستشهاد على
الحال التى يريدونها ، ويذهبون إليها من تهجمه على العرب
وعادات العرب ، وتغنيه بحياة فارس وعيش فارس . وهو لهذا
يُعدُّ أعجمياً ، وسواء أكان فارسياً أم عربياً . وسواء
أدلى وافتخر بحياة الفرس ليزرى بعيش العرب ، أم أزرى
بالعرب وعيشهم ليمتخذ منه سبباً لمدح الفرس ، فإن ذلك لا شأن
له بقيمته فى عالم الشعر والأدب .

وعلى هذا فإننا نقول إنه لا سبيل إلى فهم النواسى فى هذه
الناحية إلا بفهم البواعث التى دعت إليها .

فميتا « اسقنى يا ابن أدها » هما من مقطوعة صغيرة يطلب فيها
من نديمه أن يتجاوز عن وصف الدمنة والوقوف على الطلل
ليسقيه ويغنيه . فالصوت الأعجمى فيها ليس المقصود فيه التعاجم
وإنما هو الزراية على من يستبدل بالأصوات الجميلة ، والخمر التى
وصفها « نعت دمنة وزجر أشأم » . والتجاوز عن وصف الطلول
ونعت الدمن ، جزء كبير من مذهب النواسى ، دعا إليه وألح فى

الدعوة إلحاحاً شديداً حتى وصل الأمر إلى الخليفة ، فأمره بذكرها
فذكرها وذكر معه السبب — وهو أمر الخليفة — الذي دعاه
إلى وصفها خيفة أن يظهر بمظهر المناقض وهو الذي لا يعبأ بشيء .
فالنواصي أراد الصديق في مذهبه وقد حماد هذا الصديق على
مركب وعر وهو مضطر .

وقد أراد أن يتجاوز عن طريقة الشعر القديم ، وأن يغرق في
وصف المناعم والمباهج التي بين يديه ، وتحت متناول سمعه وحسّه .
وهذه المناعم والمباهج أكثرها أعجمية . فهو يذكر أهلها بالخير ،
وطريقة الطلول والدمن عربية ، والزراية بها زراية بالعرب وذوق
العرب ، نخيل إلى العرب أن الرجل يمدح الفرس ويتعاجم ، مع أن
الرجل لم يردّها أعجمية أو عربية ، وإنما أرادها حقاً وصدقاً . مثل قوله :

ليال أروح على أدم	كبت وأغدو على أشقر
خبول من الراح ما عربت	ليوم رهان ولم تضمر
براقعها من سحيق العبير	ومن باسمين وسيبر
ذخائر كسرى لأولاده	وغرس كرام بنى الأصفر
غدا المشترون على أهلها	فقالوا أتيناكم نشترى
خيولا لكم قد أتت فرهة	فن بين أحوى إلى أحور
فقالوا لهم إنما خيلنا	سلافة كرم بنى قيصر
ولا تحمل اللبد لكنها	خبول لكل فتى أرهر

ففي هذه الأبيات مدح بالغ لعيشة الفرس والروم .
ولكن أية حال دعت إلى هذا ؟ أليس من الظلم أن ننسى
مزاج أبي نواس ، وحبّه للحمير ، ومدهبه الجديد ، وعيش
اللاهو الذي يدعو له لنضع بدل كل هذا كلمة « أعجمية » ؟
إن العرب بعد الإسلام لم يكونوا أهل خمر . فلو أراد
النواصي أن يمدح العرب في هذه القصيدة وشبهاتها فسبيله
إما أن يبالغها ويستخير الله في عدم نظم الشعر الذي لا يقدر
عليه ، وإما أن هذه الخيول المضمرة عليها اللبد يخرجها إلى
ميدان — كخيول عربية — فإذا هي تتراكض وتسهل في
الشرق والغرب ، تطأ أمجاد فارس وتفتح ممالك بني الأصفر ،
وهو صادق في هذا وفيه الفخر كل الفخر . ولكن هببه فعلها
فأى شيء يبقى منه ؟ لا يبقى شيء . ويكون شاعراً آخر
لا يكفي أن نضفي عليه روحاً غير روحه ، ونغير من أعصابه ،
وننشئه غير نشأته الأولى ، وإنما يتحتم علينا أن ننقله من عصر
الرشيد والأمين ، فهو غير منسجم معه ، لنضعه في عصر آخر ،
نصعد فيه إلى أوائل العصر الأموي ، أو ننحدر به إلى الدولة
الحمانية ايرافق المتنبي .

إن تعاجم النواسى وزرايته على عيش العرب أكثر ما يرد
 فى خبرياته . ولا شك أن إكثاره فيها ووصف مجالسها كان
 يحمل العرب على نقده فيبادلهم نقداً بنقد وتهجماً بمثله :

فدعوني فذاك أشهى وأحلى من سؤال التراب والأحجار
 شغلتنى المدام والقصف عنها بقراع الطنبور والأوتار

شغلته المدام وما فى المدام من لهو وقصف والعيشة العابثة
 التى جلبتها الحضارة — التى كانت مطبوعة بالطابع الفارسى —
 عن كل شئ ما عداها ، عن الفخر بالعرب وبأعجاد العرب . إنه
 ليمدح أصحابها مهما تكن دياناتهم وأعرافهم .

وهناك سبب آخر غير هذه الأسباب كان يحمل النواسى على
 مدح الفرس ، والتباعد عن العرب ، والزراية على عيشهم .

ذلك هو الغزل ، فقد كان مباحاً فى هؤلاء الجوارى اللاتى
 أكثرهن لسن من العرب . ثم الحالة النفسية للشاعر وهى أهم
 من كل هذا . يقول النواسى :

فهذا العيش لا خيم البوادرى وهذا العيش لا اللبن الحليب
 فأين البدو من إيوان كسرى وأين من الميادين الزروب

فالبيت الثانى يشبه أن يكون جواباً عن حالة نفسية أو اجتماعية

اصطدم بها الشاعر . فهو جواب يقول في معرض التبجح والفخر
« نحن البدو » ولئن سألت ماذا يضير النواصي من هذا مادام
عربي الأب ومعنى ذلك أنه عربي ؟

والجواب أن ذلك يضره كثيراً . فهو أولاً صاحب لهو يهيمه أن
لا ينعص عليه أحد مجلسه بالفخر والمباهاة ؛ وثانياً وهو الأهم أنه
ليس بذى حسب يستطيع معه مجاراة المباهين . فأمه فارسية من
أسرة وضيعة ، وأبوه مهاجر من دمشق من جند مروان . يقال
إنه اشتغل في الحياكة أورعى الغنم . وليس هو من بيت يفخر
به ، وقد أمضى النواصي عمره يتستر على نسبه . ولقى من مباهاة
العرب بأسرهم وآبائهم وأجدادهم العنت حتى كاد يكره بغداده
المدله بحبها لهذه العصبيات وسؤال السائل فيها : ابن من هذا ؟

فان سامت وما قلبي بذى ثقة	من السلامة لم أسلم بيغذاذا
ما شئت من بلد دان منازحه	لكن فيه قبيلات وأنغذاذا
ليسوا كقوم إذا حاذبت مجلسهم	أنفذت بالترك والاسماع إنغذاذا
هناك لا تتخطى الأذن لأئمة	ولا ترى قائلا من ذا ولا ماذا

وهذه القصيدة قالها على أثر عودته من الحج ولا أعرف من
هم هؤلاء الذين لا تتخطى الأذن في مجالسهم لأئمة ، ولا يسألون
جليسهم « من ذا ولا ماذا ؟ ؟ » ولكنى أرجح أنهم الفرس

ومجالسهم ، فلقد سبق للشاعر أن أطرى مجالسهم ومدحهم بأنهم
لا يفخرون بها ، ولا يتباهون كما يصنع العرب :

ولفارس الأحرار أنفس أنفس	ونخارهم في عشرة معدوم
وإذا أعامر عصابة عربية	بدرت إلى ذكر الفخار تميم
وعدت إلى قيس وعدت قوسها	سبيت تميم وجمعهم مهزوم
وبنو الأعاجم لا أحاذر منهم	شراً فنطق شرهم محسوم
لا يبذحون على النديم إذا انتشوا	ولهم إذا العرب اعتدت تسليم
وجمعهم لي حين أقعد بينهم	بتذلل وتهيب موسوم

وأحب أن يقف القارئ عند كلمة (تذلل وتهيب) التي ينعت
بها الأعاجم ، أتراها تدلُّ على تعاجم ؟ ؟ .

وتتكرر هذه المباهاة ، ويكثر من عليه من الفخر ، ويشغل
عليه ذلك ، حتى أصبح يشترط عليهم عدم ذكر الآباء والجدود
والفخر بهم في مجالس الشراب — على الأقل —

حقوق الكأس والندمان خمس فأولها التزين بالوفار
ونائها وإن كنت ابن خير — برة محتداً ترك الفخار
وما عسى أن تصنع هذه الأوضاع الماثلة ببغداد ، أنفاذ
وعصبيات وفخر بالآباء والأجداد ، وسؤال السائل — حتى في
مجالس الشراب — من هذا ؟ ؟ وابن من هو ؟ ؟ في زمنٍ
تتناحر فيه حضارة الفرس مع أمجاد العرب بالعصبية ، في أعصاب

أديب كأبي نواس قُصَّارى نخره ما قاله للخصيب يوم سأله
 — أيضاً — عن نسبه : « إني امرؤٌ رفعتني أدبى » . أى
 رفعتك أدبك ولكن سؤال السائل لا يزال يُطاردك . ابن من
 أنت ؟ ؟ وقد يكون السائل من حُثالات تميم أو أسد ، لا يملك
 نخرًا بالحياة إلا أنه منهما . وقد ذكر الرواة أن رجلا اسمه حمدان
 ابن زكريا هجا النواسى بهذا البيت اللئيم :

أنت كما قد قيل فيما مضى فد ذل من ليس له ناصر

إننا لمضطرون إلى الاستعانة بالفلسفة الحديثة وإدخال
 « مركب إدلر » « الشعور بالنقص » فى هذه القضية . فأبو نواس
 يشعر بنقصه فى مجال الفخر بالعصبية ، ومركب النقص يجيز له
 إلى أبعد الحدود أن يتعالى على هذه العصبية فقد قال فى نوبات
 متعددة من شعوره بهذا النقص :

ومن تميم ومن قبس ولفهما ليس الأعراب عند الله من أحد

وقال على لسان ندل فى فخارة :

وما شرفتنى كنية عربية ولا أكسبتنى لاثناء ولا نفرا

ومع هذا الكره الشديد للعصبية لم يندفع معه ليفضل
 الفرس على العرب . فتمازى ديوانه لا يجد شيئاً من ذلك . فهو

لم يذكر من مناقب الفرس إلا ما يتصل بالشراب وعيش الحضارة
 ببغداد . ولم يذكر للأعراب إلا عيشهم النكد وصحراءهم المجذبة ،
 لم يتعرض للعقل الفارسي والمناقب الفارسية ويفضلها على ما عند
 العرب . وهو يفرق بين الأعراب والعرب . فالأعراب سكان
 البادية لا صلة له بهم ولا وشيجة بينه وبينهم ، إنهم من البداوة
 التي يمتتها .

أما العرب سكان الحضارة فقد كان لا يضمن عليهم بالمدح إن
 سكنت شياطين عصبياتهم ، وحبست عفاريت فخرهم « في قماقمها »
 فهو يقول على لسان الخمر بعد أن ذكر لها أصنافاً من الخلق
 فرجته أن « لا يمكنهم منها » :

ولا السفال الذي لا يستفيق ولا غر الشباب ولا من يجهل الأدبا
 ولا الاراذل إلا من يوقرنى من السقاء ولكن اسقنى العربا

وفي هذا مدح وأى مدح ، وهو غير متهم فيه بالتناقض من
 جماعة عصره لأنه : قال « وأين البدو من إيوان كسرى » . وكثيراً
 ما كان يقول مثل هذا :

طربت إلى خمر وقصف الدساكر ومنزل دهقان بها غير دائر
 بفتيان صدق من سراة ابن مالك وأزد عمان ذى العلا والمفاخر

وإذا جد الجد وكان لا بد من الفخر بالعصبية ولها عن
الكأس وخفتت أصوات شياطين الشعور بالنقص . نخر وأطال
« باليمنية » كما رأى القارىء . أما الأبيات التى أوردها ابن منظور
« قرارتها كسرى وفى جنباتها » فالظاهر أن العرب فى عصر
الشاعر ودونه بقليل فهموها على حقيقتها وعلى خلاف ما فهمها
ابن منظور وجماعته . فصاحب الرد على الشعوبية والمفاخر بالعرب
حتى بعصيتهم ومخاصرهم يوم الحفل (الجاحظ) لم ير فيها إلا
أنها طراز فذ من التصوير لم يسبق إليه . وهى كذلك لا من
حيث إنها طراز فذ ، ولكن من حيث إنها لا تمثل إلا التصوير
الشعرى وليس فيها من التعاظم شىء . وفى الحق أن الاستشهاد
بهذه الأبيات على أعجمية النواسى يمثل سوء ظن به فلا يذكر
لفظة « عجم » حتى يتهم بالعجمة . وإلا فأى حرج على
الشاعر إن رأى كأساً حفر فى جوانبها صورة كسرى ورجال من
الفرس فوصفها على حقيقتها ؟ فقد وصفها فارسية غير مرة
لأن فيها صورة فرس :

مخفرة الجوانب والقرار

وكسرى فى قرار الطرجهار

خلل بزائها فى قعر كأس

مصورة بصورة جند كسرى

ثم وصفها صفة الفرس ولكن صورها رجال من الهند :
 بآنية مخروطة من زبرجد تخير كسرى خرطها ليصونها
 كائن رجال الهند حول إنائها عكوف على خيل تدبر متونها
 ووصفها حيناً فإذا صورها من القسوس ذوى الصلبان
 وأعلمهم من الروم :

ماس وأمثالها محفرة صور فيها القسوس والصاب
 يتلون أنجيلهم وفوقهم سماء خمر نجومها الحب
 ومثل ذلك قوله :

بنينا على كسرى سماء مدامة مكحلة حافاتها بنجوم
 ويقول صاحب العمدة : « وكان النواسى شعوبى اللسان وما
 أدرى ما وراء ذلك » ووراء ذلك ما بيناه . وابن رشيق كان
 حذراً فى نعتة بشعوبية اللسان ، فما يجوز أن يوصف النواسى
 بأكثر من ذلك .

زندقة

يسهل على المنقب فى شعر أى شاعر — مهما صلحت عقيدته
 واشتهر بتقواه — أن يقع له على أبيات تغمزه فى عقيدته وتقواه .
 ويسهل على المنقب أيضاً فى شعر أى شاعر اشتهر بإلحاده أن يعثر

له على أبيات تلحقه بذوى الكرامات . وأى شاعر أشهر بالتقوى
من العتاهى ؟ ومع ذلك فقد ذكروا « أنه كان متذبذباً فى
دينه ^(١) » وأنه قد تزندق فى كثير من الأبيات :

يا رب لو أنيتنيها وعى فى جنة الفردوس لم أنسها
إن المليك رآك أحسن خلقه ورأى مثالك
خذا بقدرة نفسه حور الجان على مثالك

وأى شاعر اشتهر بالإلحاد فى العربية شهرة أبى العلاء وهو القائل :

أدين رب واحد وتجنب فبيع المساعى حين يظلم دائن
أمرى لقد خادعت نفسى برهة وصدقت فى أشياء من هو مائن
يحدثنا عما يكون منجم ولم يدر إلا الله ما هو كائن

ومرد ذلك — على ما أعتقد — هو أن الشاعر يترجم عن
عواطفه أولاً ، وهذه العواطف تسكن وتثور ، وترضى وتغضب ،
فتجىء بحالاتها هذه التى يترجمها الشاعر شعراً ، بما يحمل على
الإيمان ، وما يحمل على الجحود ، وفى الشئ ونقيضه . وقد يكون
الشاعر لم يقصد هذا كله أو قصده فى لحظة ولم يقصده فى كل
اللحظات . ويجىء مؤرخو الأدب فيقول أحدهم آمن الرجل ،
ويقول غيره بل أغرق فى الإلحاد ، وكلهم يدال على قولته

بحديث لحظة من تلك اللحظات التي مرت بحياة ذلك الشاعر .
وليس هذا هو الحق والصواب ، وإنما الحق والصواب أن تمزج
هذه اللحظات التي تكون حياة الشاعر ، ثم يمزج معها حالة
مزاجه ، ويستخرج من هذا كله حديث الإيمان والجحود .
وهكذا يجب أن يكون الأمر في زندقة النواسى .

يقول الجاحظ : « وأما النواسى فقد كان يتعرض للقتل بجهد
وقد كانوا يتعجبون من قوله :

كيف لا يدنيك من أمل من رسول الله من نفره
فلما قال :

أحب قريشاً لحب أحمدها واشكر لها الجزل من مواهبها
جاء بشيء يغطي على الأول^(١) ، وكلمة الجاحظ صادقة ، وليست
كلها . فقد كان الجون يطغى على هذا الشاعر فيعرض للقتل
بجهد ، ولكنه كان يأتي بأشياء تغطي على أشياء فتحتاج
إلى غير قليل من التروى . فالتقوى ليست من طبيعة هذا الشاعر
الماجن . ويذكر ابن منظور أن النواسى أنشد في مجلس شراب :

يا ناظراً في الدين ما الأمر ؟ لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندي من جميع الذي تذكر إلا الموت والفر

فامتعض أصحابه وأعلموه أنهم منحرفون عن صحبته ، فقال لهم :
ويلكم والله إني لأعلم أن الجون يفرط على وأرجو أن أتوب
فيرحمني الله . ثم قال : «

أبنة نار قدح القادح وأى جد بلغ المازح
وأتم قصيدته .

ويقول ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء » : ومما كفر به
أوقارب ، ثم ذكر بيتين يطول فيهما الاختلاف أهمله أم لغيره .
وقوله في مدح الأمين :

تنازع الأحمدان الشبه فاشتبهها خالقا وخلقا كما قد الشراكان
وقوله :

يا أحمد المرتجى في كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات
ونحب أن نسجل هنا أننا نشك في البيت الأول الذى قيل
إنه قاله في الأمين . إذ لا يعقل أن يقوله في خليفة وذيعة بين
الناس مراعاة للخليفة عند الناس على الأقل .

ويقول الجرجاني^(١) : « لو كان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر
الشاعر لوجب أن يمحي النواسى من دواوين الشعراء ويحذف

اسمه » . ويقال هذا ويقال أكثر منه عن النواسى إذا أخذنا
 ظاهر مجونه ولحظة من لحظات حياته . ولكنه لا يجوز إذا أخذنا
 حياته تامة الخلقات . فبيت الشعر غير المؤمن فى أشعاره ، يستطيع
 دارس شعره أن يضع قبالة عشرات الأبيات المؤمنات إذا كان
 المعول فى تقدير زندقة الشاعر على هذا فحسب . وليس هو فى
 هذا ، وإنما هو فى الحالة النفسية التى هى من وراء شعر الزندقة
 والإيمان . فالحالة النفسية التى وراء بيت من الشعر يقوله
 (بشار) مثلاً هى غير الحالة النفسية وراء بيت فى معناه يقوله
 النواسى . وكأن الناس يفرقون بين الحالتين . فالعرب تقول آمن
 فلان وكفر شعره . وحالة النواسى النفسية لم تكن لتساعده على
 زندقة مغرقة وكفر ، ولكنها تساعده — أتم مساعدة — على
 التطرف بالاستهانة بالألفاظ الدين .

فهو ما جن ، مفرط فى مجونه ، والمجون يستدعى بعض المرات
 ليزيد إمتاعه ، أن يستخف صاحبه بالألفاظ الموقرة للدين ،
 فالذى يقول :

حج مثلى زبارة الخمار واقتنائى العقار شرب العقار
 عاظمى كأس سلاوة عن أذان المؤذن

لا يقصد من هذا حالة من حالات الزندقة أو الكفر . وإذا حُمل
البيتان أكثر من حالة التطرف في القول ، والفكاسة التي أرادها
مستملحة ، فقد ناءا به ولم يحتملاه . ولا يزال الناس في كل
حين يقولون مثل هذا في مجالس أنسهم وغلبة السرور عليهم ثم
لا يحسبهم الناس زنادقة أو ملحدين .

وكان النواصي لا يشك في نفسه ولا ينكر منها إيمانها .
ويطمع أن يغفر الله له ذنوبه ما زال مسلماً «مقراً بالله وبوحدانيته»
مالى إليك وسيلة إلا الرجا وجيل عفوك ثم إني مسلم
ترى عندنا ما يكره الله كله سوى الشرك بالرحمن رب الماعر
وقد كان لا يحسب نفسه حتى من الخطاة

لم وعفو الله مبذو ل غداً عند الصراط
خلق الغفران إلا لا يرى ، في الناس خاط
ونحن نصدق هذا ، لا لأن النواصي يقوله ، فقد يقوله على
سبيل التقية ونفى الريبة — كما يزعم الجاحظ — بل لأنه يجرى
وفاق طبعه ومزاجه .

ويطابق شعر النواصي ما ذكر الأغاني من أنه لم يكن يرى
في الزندقة أكثر من حديث تطرف :
وصيف كأس ، محدث ملك تيه مغن وظرف زنديق

ولم يكن يتصور إبليس أكثر من ظريف يعين على فساد .

لم يرض إبليس اللعين فعالنا حتى أعان فسادنا بفساد

وأين يقع هذا القول من قول بشار في إبليس وتفضيله إياه

على آدم ؟

وأشد ما روى للنواسي في الزندقة ما رواه المرزباني

في الموشح . وقد رواها الجرجاني في الوساطة بعد أن أسقط

البيتين الأولين .

وملحة في الآموم تحسب أنني بالجهل أوتر صحبة الشطار

بكرت على تلومني فأجبتها إني لأعرف مذهب الأبرار

فدعى الملامة قد أطلت غوايتي وصرفت معرفتي إلى إنكار

ورأيت إتياني المذاذة والهوى وتعجلا من طيب هذى الدار

أجدى وأحزم من قنظر آجل علمي به ضرب من الأخبار

ما جاءنا أحد يخبر أنه في جنة من مات أو في نار

وذكر المرزباني^(١) أن الجمار قال له : « يا هذا إن لك أعداء

ينتظرون مثل هذه السقطات فدع الإفراط في المجون » فقال :

« لا والله » . فسمى الخبر إلى الفضل بن الربيع ثم إلى الرشيد

فما كان بعد أسبوع حتى حبس !! والأبيات أعرق مما تعودنا

أن نقرأه له في هذه المعاني . وهو فيها يقصد فكرة ومسألة عقلية

يحاول أن يقيم البرهان عليها . . . ثم تجيء قضية حبس الرشيد إياه بسببها فتتقوى الشك في أنها موضوعة . على أنها لو كانت له فليست أكثر من حديث مجانة يستغفر الله منها، وينيب بعد حين . فحديث الزندقة — عند النواصي — كما رأى القارىء في هذا الفصل هو حديث أعصاب متقلبة . وليس المستغرب منها هذه الحالات من الإيمان والتطرف الموفى على الزندقة ، وإنما المستغرب أن تكون إلى غير هذه الحالات ، ما برحت مضطربة غير مستقرة .

حج

وأخيراً سار إلى مكة حاجاً هذا الذى يقول :

حج مثلى زيارة الحمار واقتنائى العتار شرب العتار
وقال اليويو^(١) : وجعل يلبى بشعير ويحدوبه ويضطرب فغنى
به كل من سمعه وهو قوله :

إلهنا ما أعدلك	مايك كل من ملك
ليك قد أبيت لك	لييك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك	والليل لما أن حلك
ما خاب عند أملاك	أنت له حيث سالك

وفي هذه القصيدة — بوجه خاص — ما يدفع زعم من يتجنى عليه فيجعل حجه بسبب حجٍّ معشوقته « جنان » ، ومن الجائز أن تكون ذهبت للحج في السنة التي حج فيها وقد ذكر ذلك في بيتين :

حجبت وقلت قد حجت جنان فيجمعنا وإياها السير
وقوله :

وعاشقين انتف خداها عند الشام الحجر الأسود
ولعل البيت الثاني للتصوير لا للحقيقة ، ولكن من الظلم أن نعتبر أن حجه كان بسبب ذلك ، إن صح أن جنان حجّت في هذه السنة ، فالحج والتوبة وشرب الخمر والفجور أشياء قريبة من طبيعة هذا الشاعر الذي تتحكم فيه العاطفة .

والسنة التي حج فيها النواصي لا يقال عنها أكثر من أنها السنة التي حجّ فيها الفضل بن الربيع . وهذه سنة لا سبيل إلى تعيينها إلا بحادث آخر لأن الفضل لم يحج بالناس .

يقول ابن منذر الشاعر^(١) : إن الرشيد حينما حج بعد إيقاعه بالبرامكة وحج « معه الفضل بن الربيع » وكنت أملت فبيات

قولاً وقصدته به يوم التروية فإذا هو يسأل عني ويطالبني فبدرني
الفضل فقال : « يا أمير المؤمنين هذا شاعر البرامكة ومادحهم » ،
وقد كان البشر قد ظهر لي بوجهه فتنكر وعيس ، فقال الفضل :
مره أن ينشد قصيدته فيهم :

أنا بنو الأملاك من آل برمك فيا طيب أخبار ويا حسن منظر

فما زالوا بي حتى قرأتها ثم أتبعته ذلك بأن قلت : « كانوا
أولياءك يا أمير المؤمنين أيام مدحتهم » . فقال : « يا غلام الظم
وجهه » فلطمت حتى أظلم ما كان بيني وبين أهل المجلس . ثم
قال : « اسحبوه على وجهه . والله لأحرمنك ولا تركت أحداً
يعطيك شيئاً » ، فانصرفت وأنا أسوأ الناس حالاً في نفسي وحالي
وما جرى على . ولا والله ما عندي يومئذ قوت عيالي لعيدهم ،
فإذا بشاب قد وقف ثم قال : « أعزز على والله يا كبيرنا بما جرى
عليك » فدفع إلى صرة فظننتها دراهم فإذا هي مائة دينار وقال
« الصولى في خبره » فإذا هي ثلثمائة دينار ، فقلت : « من أنت جعلني
الله فداك ؟ » قال : « أخوك أبو نواس ، فاستعن بهذه الدنانير
واعذرني » . فقبلتها وقلت : « وصلاك الله يا أخى وأحسن جزاءك »
وهذه خلة ليست بمستنكرة من النواسى ، كرم وبر بالأصحاب .

وابن مناذر كان في البصرة قبل أن ينتقل مرغماً إلى الحبجاز .
أدركه النواسى فيها ونشأت بينهما مودة يذكرها صاحب الأغاني
في حديثه عن ابن مناذر وعبد الحميد الثقفي الذي تهتك في حبه .
هذا الشاعر الأخير هو ابن بانة مولاة جنان فأية قرى عاطفية
جمعت بين الشاعرين ؟

ويهمنا من هذه الحكاية أنها تُعين السنة التي حج فيها
الرشيد ومعه الفضل بعد مقتل البرامكة ولم يحج في غيرها .
وفي طريق أبي نواس إلى مكة وقعت له الحادثة التي يرويها
الصولي ورواها الذين نقلوا عنه « وهي اجتماعه بفتاة بدوية عند
ذهابه ، ومعها فتيات كواعب بسنها عند إيايه ، وإنشاده إياها
شعراً ما زال يَحْتال فيه عليها حتى سمرت وأبانت من محاسنها
الخفية ما أطار البقية الباقية — التي تركتها ظباء السواد —
من عقله . ثم احتمالت الفتاة وصويحباتها عليه فأدخلته غاراً
« فضر بن إزارى على باب غار فعدلت إليه ، وأدخلت فيه .
وأبطأن على » ، وأنا أتشوف إلى دخول واحدة منهن إذ دخل على
أسود كأنه سارية . . .

وعاد النواسى إلى بغداد فأقبل الناس — كالمعتاد —

« يباركون له في الحج ، ويهنيئونه بسلامة العودة وضمنوا أن الأمر كله جد ، وأنه إن حجّ فقد زهد وقد تنسك ، وهو لم يرد كل هذا وإنما أراد الحجّ توبة من خطايا قديمة يخطئها عن ظهره ليحمل غيرها .

حججت رجاء الفوز بالأجر قاصدا لخط ذنوب من ركوب الكبائر
ولم يرده نسكا وكان لا يزال له في اللذائذ وطايبها ولع وشوق
فهتف من أعماقه :

قالوا تنسك بعد الحج قلت لهم أرى وأرجو وأخشى طيرنا باذا
أجل إنه ليرى . . . ويرجو ذلك ولكن :
ما أبعد النك من قلب تقسمه قطربل فقرى بنى فكلوا اذا
فعاد يواصل ما انقطع — واعله لم ينقطع — من سيرته ،
ويروى ظمأ هذا القلب المعمور بحب الجمال .

نهاية المطاف

سجن الشاعر

أمر الرشيد بسجن النواسى وأمر الأمين — فى خلافته —
بمثل ذلك ، وقد أمضى فى سجن الأمين ثلاثة أشهر ذكرها فى

شعره فذكرها الطبرى فى تاريخه وذكرتها بعد ذلك كتب الأدب
مضت لى شهر من حبست ثلاثة كائن قد أذنبت ما ليس يفقر
أما مدة سجن الرشيد فلم يذكرها النواسى فى شعر ولم تذكرها
كتب التاريخ . واكتفت الرواية الأدبية بقولها ، وأطال حبسه
وأخرجه الأمين فى خلافته .

أما السجن فهو عقوبة « إدارية » كما نقول بلسان اليوم ،
أوقعها الخليفان بهذا الشاعر بسبب السياسة . ومن أسباب
السياسة ما لا يجوز اطلاع الناس عليه . فلا بد من انتحال
أعذار ، وخلق أسباب لتسويق الموقف . وهكذا كان الشأن
مع شاعرنا . فقد أخذ بالحرر والمجون والزندقة حتى ذاعت هذه
الأسباب ، وكادت تغطى على السبب الحقيقى . يقول ابن قتيبة :
« وقال له الرشيد يا ابن اللخناء أنت المستخف بعصا موسى نبي الله
إذ تقول :

فإن يك باقى سحر فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب
وقال لإبراهيم بن نهيك — رئيس شرطته — لا يأوى إلى
عسكرى من ليلته . فأقام عند إبراهيم حتى مات هرون
وأخرجه الأمين »

وذكر ابن جامع عن بعض أصحاب أبي نواس ورواته قال: « كان أبو نواس قال أبياتاً منها :

وقد زادني تيبها على الناس أني أراني أغناهم وإن كنت ذا عسر
ولو لم أنل شخراً لكان صيانتى فمى عن سؤال الناس حسبي من الفخر
ولا يطمعن في ذلك منى طامع ولا صاحب التاج المحجب بالقصر

فبعث إليه الأمين وعنده سليمان بن أبي جعفر فشتمه أقبح شتم وقال : كيف تقول ولا صاحب التاج المحجب بالقصر وأنت الذى تتكسب بشعرك أوساخ أيدي اللئام ؟ فقال سليمان : وهو — يا أمير المؤمنين — من كبار الثنوية ، وشهد بذلك من كان موجوداً فأمر بحبسه .

ومنهم من يذكر أن الأمين إنما حبسه على قصيدته التى أولها :

إسـقنيها يا دفاه مرة الطعم سلافه

وقصيدته :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر . ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر

وقصيدته :

جاء بها زينة ذهبية فلم نستطع دون السجود لها صبرا

وقد ذكروا أنه جاء به — بعد أن سمع هذه القصائد —

وقال له : « أنت زنديق وكافر » وأمر بحبسه . واختلاف هذه

الأسباب يؤهم القارىء أن الأمين حبسه غير مرة ، والصواب أن الحبس لم يكن إلا مرة واحدة فى زمن الأمين ، ومثلها فى زمن الرشيد .

وكان حبس الأمين إياه بسبب حديث خراسان الذى أسلفنا البحث فيه . وقد جمع صاحب كتاب « الوزراء والكتاب » هذه الأسباب كلها بعد أن ذكر كلمة الفضل بن سهل فكانت كأنها تعاليت لا أكثر . كلمة الفضل هى السبب والعلة قال : « إن النواسى كان ينادم محمداً ويخص به وله معه أخبار مشهورة فقال الفضل ابن سهل يزرى على محمد به ويعيبه باستعماله إياه : كيف لا يستحل قتال محمد وشاعره يقول فى مجلسه ما لا ينكر عليه » ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ؟ فبلغ ذلك محمداً فأمر بإحضار النواسى وعنده سليمان بن أبى جعفر . وقد كان اتصل بمحمد عنه أنه قال قصيدته التى يقول فيها « وقد زادنى تيهاً » وقصيدته « إسقنيها يادفاقه » فلما دخل عليه « ثم تم صاحب الكتاب ما ذكره الطبرى من شتمه واتهامه بالزندقة ثم الأمر بحبسه . فظاهر من هذا الحديث أن السجن فى زمن الأمين لم يكن إلا مرة ، ولم يكن له من سبب غير كلمة الفضل بن سهل .

أما سجن الرشيد فلم تكثر فيه الروايات ، وتنوع الأسباب ، كثرتها وتنوعها في سجن الأمين . إذ كان السبب السياسي فيه لا يخشى من إذاعته ما يخشى من إذاعة السبب في سجن الأمين من قدح في الخليفة وسياسته . فالمعروف المشهور - وإن اختلفت الرواية بعض المرات - أن الرشيد أمر بسجنه لقصيده التي هجا فيها قبائل عدنان ، وأخش ولم يعف عن قریش :

إن قریشا إذا هي انتسبت كان لها الشطر من مناسبها
إن فاخرتنا فلا افتخار لها إلا التجارات من مكاسبها
والخليفة من قریش ومن عدنان ، وأقرباؤه وعمومته منها .
فلا شك أن هذه جرأة من النواصي قليل لها السجن .
ولم يعف عنه الرشيد ولم يخرج به ، وإنما الذي أخرجه هو
الأمين ، فكم مكث في سجن الرشيد ؟ . .

ذكرنا أن النواصي مدح العباس منصرفه من الحج عام ١٩٢ للهجرة . وذكرنا أنه لم يحج في الناس إلا هذا العام . فالسجن قد وقع بعد هذا التاريخ . والحجيج كان يقدم دار السلام في محرم ، فالسجن أحرى أن يكون في أواخر هذا الشهر . وقد توفي الرشيد في اليوم الثالث من جمادى الآخرة عام ١٩٣ هـ فتكون مدة

السجين أربعة أشهر تنقص أو تزيد قليلاً . ومدة سجنه في كلتا
المرتين ليست بالبالغة فهي أشهر سبعة أو ثمانية ، ولكنها كانت
ثقيلاً على نفس رجل كأبي نواس تلهبه العاطفة ، وتفتك بصبره
فهو يكتب إلى الفضل بن الربيع كثيراً يلحف عليه بالرجاء
ويكتب إلى والديه ويكتب إلى كل من يتوسم فيهم الخير .
وإنك لتشفق على الشاعر وتكاد تضحك من نفاد صبره إذ تراه
يكتب إلى رجل اسمه عبد الله بن نعيم ليذكر أخاه كاتب الفضل
ابن الربيع ليذكر هذا الأخير بأمره :

فأسبق أبا عبد الإله بها	واجعل لعقبك ذخراً نجلاً
كلام أخاك يكلم الفضل	وليبلني حسناً كما أبلني
إني وصلت بك الرجاء على	بعد المدى إذ كنت لي أهلاً

ومثل هذا في شدة اللهفة ونفاد الصبر ما كتبه إلى الحسين
ابن عيسى بن أبي جعفر المنصور :

رفع الصوت فنادى	يا أبا عيسى الجوادا
كن عماداً يا ابن من كان	ن غياناً وعماداً
وتدارك جسداً قد	مات أو قد قيل كاداً
قل له إن قال هل تا	ب نعم تاب وزاداً
واضمن التوبة عمن	كلما أطراك عاداً

ويحتاج الأمر فلعل هؤلاء العطاء ينسونه ، ويهملون غوثه .

فليبعث بأشعاره إلى عبيد الخادم مولى أم جعفر وإلى حسين الخادم مولى هرون ، وإلى غير هذين .

وكل ما نظمه النواسى فى سجنه وكتبه إلى من طالب عندهم الشفاعة ليس له كبير قيمة من الناحية الفنية ، وإنما هو يمثل رجلاً ضيق الصدر ، نافذ الصبر ، همه أن يخرج من هذا الضيق الذى لم يعتده ولا تحتمله أعصابه بما فى ذلك القصيدة التى كتبها للرشيد :

بمفوك لا بجودك عذت لابل بفضلك يا أمير المؤمنين
ففى هذه ال « لا » المتكررة أثرٌ من حالة السجن ، واضطراب أعصابه . والأبيات الباقية كلها فى مثل هذا الاضطراب

فشفع حسن وجهك فى أسير بدين بحبك الرحمن ديننا
فالمنى فى هذا البيت سوقى وعامى جاء فى تركيب مضطرب متعاضل . والأبيات التى تكاد تكون مستملحة هى الأبيات التى كان النقاد القدماء يرون أنه أسف فيها . ومع أن فيها إسفافاً ففىها شىء من خفة روح النواسى ، لا تقع على مثلها فى سائر مقولاته وهو فى السجن قال يخاطب الفضل :

أنت يا ابن الربيع الزمتنى النسيك وعودتني والخير عادة
فارعوى باطلى وأقصر حبلى وتبدلت عفة وزماده

لو ترائى ذكرت للحسن البصرى فى حسن سمته وقتاده
 المساييح فى ذراعى والمصطفى فى لبتى مكان القلاده
 فادع بنى لا عدمت تقويم مثلى وتفتن لموضع السجاده
 لو رآها بعض المرائين يوماً لاشتراها بعدا للشهاده
 أليس فى هذه الصورة التى رسمها لنفسه ما يغرى على
 الضحك والفكاهة ؟

ونحب أن نشير إلى شيء وهو أن النواسى فى سجن الأمين
 أحب أن يصدق أنه إنما سجن للخمر وفى سبيل الزندقة التى هو
 منها براء فلم يذكر السبب الحقيقى وهو السبب السياسى ، لأن
 ذكره مما لا يجوز لاتصاله بسمعة الخليفة . فانصرف همه إلى
 تبرئة نفسه من ناحية « ما أشيع » من حديث الخمر والزندقة .
 وفى هذه التبرئة تبرئة للخليفة . ولا شك أن الأمين كان يرتاح
 لأقواله هذه ولا سيما حين يقول إن الأمين منعه عن شرب الخمر ،
 ولعله كان يشربها وهو يقول :

نالتى بالامام فيها إمام لا أرى لى خلافة مستقيما
 فاصرفاها إلى سواى فإنى لست إلا على الحديث نديما

إذ ليس المهم شربها أو عدمه ، وإنما الأهم أن يعلم الناس
 وأهل خراسان أن الأمين ليس كما وصف رجلهم ، يترخص فى

الحجر ويقول شاعره : « ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الحمر » ولا يعاقبه على ذلك .

وفاته

تختلف سنة الوفاة كما تختلف سنة الميلاد ، فهي في عام ١٩٨ للهجرة على رواية الخطيب في تاريخ بغداد ، بعد أن ذكر السادسة والتسعين والسابعة والتسعين بعد المائة . وهي ١٩٩ هـ على رواية ابن قتيبة . ونرجح رواية الخطيب ونظنها ١٩٧ هـ جرية لسبب واحد . وهو أننا لا نرى للنواصي شعراً في النكبات التي توالى على بغداد في هذه السنين ، ولا نحس له بوجود . فإذا كانت هي سنة الوفاة ، فتكون وفاته عن اثنتين وخمسين سنة . ونوافق في ذلك ابن قتيبة ، لأنه قد ذكر أن هذا عمره وإن كنا خالفناه في سنة الوفاة .

أما القصائد التي رويت له في رثاء الأمين ، فالأرجح أنها منحولة . وأبروع هذه القصائد القصيدة التي منها :

طوى الموت ما بيني وبين محمد وليس لما تطوى المنية ناشر
وقد ذكر صاحب الأغاني أنها لأشجع السلمي .

وليس من المعقول أن يعيش النواسي في أيام الفتنة ولا يكون
له فيها شعر ، وقد أكثر الشعراء من القول والنظم فيها .
أضاع ؟ ؟ ولم لم يضع غيره وفيه هجاء للمأمون وقواده ؟ ولعلّ هذا
العموض في سنة وفاته ، لأنها سنة وقعت في هذه الأيام السود
التي مرت على بغداد .

ولم يذكروا العلة التي توفي منها والظاهر أنه اشتكى من أوجاع :
دبّ في الفناء سفلاً وعلواً وأراني أموت عضواً فعضوا
وروى الشافعي - رحمه الله - قال : « دخلت على أبي نواس
فقلت له : ما أعددت لهذا اليوم ؟ » فقال :

تعاظمي ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما
الثقة بالله . وإني لنعم الزاد والعدة .
ثم توفي وقبر في مدافن الشونيزية .

عمان - شرق الأردن

رقم الإيداع	١٩٨٦ / ٤٥٣٤
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٠٢-١٧٢٩-٨

١ / ٨٦ / ٢٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)